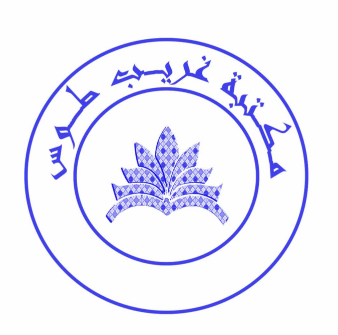

مكتبة غريب طوس

منشورات
مكتبة النهضة
بغداد

الطبعة الاولى ١٩٨٣

مطبعة بابل

بسم الله الرحمن الرحيم

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

الآية ١ سورة هود

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »

الآية ٨٢ سورة النساء

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »

الآية ٢٤ سورة محمد

اهـــداء

الى كل انسان ينقاد لداعي العقل ولا يلتفت لنداء الهوى ، ويستنير باضاءات العلوم ويأنف من رجم الظنون ، وينزل عنـد مقتضى الحـق باختيار وجرأة ويحيـد عن التـواء الباطـل بكبرياء وقـوة ، مستيقنا ان انسـانا بهـذه الخصال لن يتلقى خطاب الله تعالى بقلة اكتراث الا عند فقدانه احترام العقـل وتشبثه بخيط الظنون واقتناعه بلذائذ الهوى ثمنـا يستحق الضياع في متاهات الباطل .

مقدمة

ايمان العلم والشجاعة

أسمى مراتب البشر

صراع كبير يلحظ المرء ملامحه تتراصف وتتكامل وتتوضح كلما أمعن النظر في كتاب الله ، الايمان يقف فيه على جانب ممثلا العقل والذكاء والفطنة واستخدام الحواس من سمع وبصر وسواهما باقصى طاقاتها وبأمانة ثم الاصغاء لتوجيه القلب الذي يصدق من استفتاه ٠

ويقف على الجانب الآخر عدم الايمان أي الكفر متصفا بوضع مزية العقل تحت ركام الشهوات وتوظيف ذكاء الانسان وفطنته لتمكين الهوى وتحصيل نزواته ، أي أن الذكاء والفطنة

لا يعدمهما الكافروانما يستخدم مؤداهما خلاف المرجو ، وكذلك شأن حواسه انها تعمل ولـــكن المحصلة لا تصب الآ في تيـار الشهوات وقناة الهوى ·

الفارق بينهما واحد ولكنه ضخم ومن شأنه أن يغير مجرى البحر فضلا عن مجرى حياة الانسان ذلكم هو أن المرء المؤمن قد تخلص من هيمنة الشهوات والاهواء على عقله وقلبه وحواسه فهو يلتقط ويفكـر ويستنتج بموضوعية ويضـع حصيلة ذلـك في ميدان التطبيق العملي فيجسدها بشجاعة ووعي وأمانة ·

أما الكافر فيكبل عقله وقلبه وحواسه بقيـــود الشهوات والاهواء وهو كذلك يلتقط ويفكـر ويستنتج ولكن اذا جاءت الحصيلة انسجاما مع الشهوات وخدمة للاهواء أخـــذ بها واذا جاءت نقيض ذلك طواها بهلع وخبث وتمويه ··!

بماذا تشبه حال الكافر هذا ··؟

أنت تستطيع أن ترصد كلمظاهر وسلوك الانسان وتشبهه بنظائر ربما لاذعة ولكنك لا تبلغ حتما في هذا التشبيه القدر من الدقة والقدر من الاحاطة المتمثلين بالوصف القرآني لحالات الانسان المختلفة ، لماذا ··؟

لانك ترصد من فوق القشور الظاهرة وحكمك لا يتعداها الى البواطن ، أما خالق الانسان فانه يحيط بدقائق الحال من أعماق الباطن الى أبعد نقطة في الظاهر ، انه ··

« يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور »(١).

« آلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٢).

وتصويرا لحال الكافر عندما لا يصغي لحصيلة العقل والقلب والحواس يقول الله تعالى :

« ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون »(٣).

انهم كالحيوانات التي تسمع كلماتك وترى اشاراتك ولكنها لا تفقه معنى تسمعه ولا تفهم لمحة تراها وهي لا تعقل شيئا من وراء هذا وذاك.

لا بل يذهب القرآن الكريم الى ما هو أبعد من ذلك في التصوير :

« ان هم الا كالانعام بل هم أضل »(٤).

الحيوانات اذ لها سمع لا تفقه مما يلتقط مدلولا ولها بصر لا تفهم مما يطاله شيئا يقتصر انتفاعها من السمع والبصر على نطاق يساعدها على متطلبات وضعها الحيواني فقط ، ولو كان لها عقل وقلب كما أوتي الانسان لربما اهتدت بما تسمع وتبصر وتعقل وابتعدت عن التيه ..!

---

(١) الآية ١٩ سورة غافر .
(٢) الآية ١٤ سورة الملك .
(٣) الآية ١٧١ سورة البقرة .
(٤) الآية ٤٤ سورة الفرقان .

ومن هنا فان انسانا له عقل وقلب وحواس لا يستخدمها في تلمس الحق والانتفاع بهدايات الله واجتناب الباطل والابتعاد عن معصية الخالق لهو أضل من الانعام ٠٠!

وياله من تشبيه بالانعام ٠٠!

الانعام ـ وهي بالقياس الى سائر الحيوانات أكثر انتشارا في بيئة الانسان وأكثر التصاقا بوضعه المعاشي وأكثر قربا الى عينيه ـ تأكل وتشرب وتطاوع الراعي باندفاع في الاغتذاء بالمرعى الخصيب ولا تفطن الى ان بعده الذبح احتفاء بما اكتنزته من لحوم على أنغام الراعي ومن وراء صفيره ٠٠!

ولو أن الانعام فطنت لما بعد الاغتذاء وعقلت معنى مطاوعة الراعي لما سارت نحو زيادة الوزن مندفعة بحرص شديد بل ربما تمتنع عن الطعام تعبيرا عن ابسط حالات الاحتجاج ان لم يتسن لها أسلوب آخر لرفض التسمين والرد على الذابح ٠٠!

ومع هذا ،فالانعام معذورة لانها تعدم بصيرة العقل وتفتقد دلالات السمع وتفتقر لقبسات النظر أما البشر المنعم بهذه الخصائص فلا عذر له عندما يضل ، هو اذن « كالانعام بل هم أضل » ٠٠!

ان الصراع الكبير المسجل في القرآن الكريم بكل ملامحه انما هو صراع بين العلم والجهل ، صراع بين علم ذوي الالباب

وبين جهل الذين هم أضل من الانعام(٥) أحد طرفي الصراع يفوز بكرامة وود وثواب في نعم المصير ، أما الطرف الآخر فيبوء بذل وسخط وعقاب في بئس المصير ..!

المؤمن يؤدي الامانة ويصبر على حملها في دنياه ولكن له جزاء الدار الآخرة حيث يلقى فيها حفاوة الخلاق العظيم تبارك وتعالى .. أما الكافر فيضيع الامانة ولا يثقل كاهله بأدنى لحظة التزام فيأكل ويشرب ويعيش لشهواته « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون »(٦) فتكون عاقبته الخسران في الدار الآخرة حيث يلقى فيها أشد الهوان وأقسى العذاب وأمر الندم « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار »(٧).

ولا تخلو ساحة الصراع الكبير من أمور تلتبس على البعض فتؤدي بضعاف النظر أحيانا الى الانحراف عن سواء السبيل باطلاق

---

(٥) ولا تستغرب اذا رأيت ضليعا بعلوم المادة مثلا وقد أدرجناه ضمن الجهلاء الذين هم اضل من الانعام ..! وقد تعترض قائلا : لماذا وهو عالم ذو تخصص نافع ..؟ ان علما لا يهتدي به الانسان الى سواء الصراط ويوظفه لما يخدم شهواته فحسب ويجعل منه عبدا للاهواء فالجهل أرحم منه ، وان عالما يستعين بعلمه على تحويل حياته الى ظلام دامس لذو الجهالة افضل منه حالا مادام باحثا عن أدنى نقطة ضوء عله يستنير بهداها ..! انك تجد عذرا للجاهل اذا أساء اما المتجاهل فلا عذر له ، وهكذا يقرر ربنا سبحانه : « ان هم الا كالانعام بل هم أضل » ..!

(٦) الآية ٣ سورة الحجر .

(٧) الآية ٥٢ سورة غافر .. ولك أن تتصور مشهد انسان ظالم متغطرس متكبر يبدي الاعتذار بذلة وانكسار وتهافت لهول ما يلاقيه من شدائد ، ثم تصور وضعه عندما لا يلتفت الى اعتذاره أحد وانما يترك ليزداد تجرعا لاكبر الغصص وسط العذاب الاليم ..! وضعه النفسي مرير يبيض من قساوته شعر الرضيع، ووضعه الجسدي معاناة لا توصف بقلم وتعذيب لا يشابه بنظير واهوال لا ينقطع تدفقها ..! وهو كلما ضاق ذرعا - وما أكثر أن يضيق ! - صرخ متوسلا « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال : انكم ماكثون » الآية ٧٧ سورة الزخرف ، وياله من جواب « انكم ماكثون » ..! فان عدم تلقي هذا الجواب وبقاء النفس متعلقة بأمل وهمي خير من سماعه ..! انه عالم عذاب شديد عظيم الرهبة ، حتى الكلمة على قلة حروفها يرد بها على سائل يصرخ متوسلا هي شحنة من أفظع العذاب ..! أو ليست هي جهنم ..؟! اذن لطالما حذر الله منها في كتابه فهل من مستفيد ..؟!

احكام غير دقيقة ـ بل هي ظالمة ـ على أشياء لا تستحق من العاقل الا الاكبار ..!

ومن هذه الملابسات :

أولا ـ هناك مؤمنون بالله ذوو تحصيل علمي بسيط يجد فيهم مرضى القلوب (نقيصة) يعيبون بها الايمان وأهله فتراهم يستنكفون الوقوف في صف واحد مع اولئك البسطاء اعتدادا بحصائلهم العلمية وامكانات تفكيرهم ..! وهكذا يكون الشطط في التعامل المؤدي بصاحبه الى ارتكاب أفدح الظلم ..!

لقد ظلموا دين الله في أنه دين الفطرة يقبل عليه الانسان كلما توجه نحو التماس المعتقد بصفاء نية وتجرد من الغرض سواء كان عالما أو متعلما ، ولا يخفى أن في قدرة دين الله على استيعاب البشر من أقلهم علما الى اكثرهم علما نجد قمة الاعجاز ..!

أفلا يكون غمط هذا الاعجاز أفدح الظلم ..!؟

وظلموا ذوي التحصيل العلمي البسيط الذين أقبلوا على الايمان بعد أن تحرروا من أغلال الشهوات وسيطرة الاهواء وتلمسوا الحقائق بصفاء نية وتجرد من الغرض اعتمادا على امكانات العقل والقلب والحواس وطلبا لحقائق كبرى أوضح من الشمس ، انهم لا يبحثون بعيونهم المجردة مثلا عن عالم الالكترون داخل الذرة حتى يعابوا ..!

انهم آمنوا بالله جل شأنه الـذي جعـل عليه دليـلا في كـل ما تصغي اليه اذن وكل ما تقع عليه عـين وكل مـا تتلمسه أي حاسة أخرى وكل ما يسيغه العقل ويدعمه وكل ما يزكيه القلب ويهفو اليه ٠٠! أفلا يستحقون الاكبـار وقد أمكنهم النجاة من الضلال بما يسميه ظالموهم « قشـة العلم » ٠٠!؟

ثانيا ـ هناك كافرون بالله ذوو تحصيل علمي غزير يرى فيهـم مرضى القلوب (حجة) في عدم الايمان ٠٠!

والامر هنا أشبه بقوي البصر الذي يزعم أن الشمس غير موجودة بعد أن يضع حائلا بينه وبينها كأن يسدل جفنيه رغم أن أشعتها تملأ نهاره ضياء ويتوغل دفؤها الى عظام جسمه ٠٠!

فنفي وجود الشمس من قبل انسان قوي النظر يضع حائلا أمام عينيه انما هو ادعاء لا يصـدقه الا كفيف لا يسعفـه النظر على التحقق من الاشياء ٠٠!

غزارة التحصيل العلمي حق ولكن يراد به باطل عند وضع الحائل بين العلم والايمان وما أكثر الحوائل ٠٠ الشهوة الحرام حائل والغرض الصغير التافه حائل والهوى المنحرف حائل ، ان شهوة يراها فـلان قليلة الشأن ولا بأس بهـا لتستبد بالمستسلم لها وتستولي عليه تماما ، وان الغرض الصغير على تفاهته ان لهث في تحصيله أعظم العلماء شأنا

اعماه عـن تلمس الصـواب ، والهوى ان ترك حبله عـلى الغارب قاد صاحبه الى أعمق الحفر ومواطن السوء وأوخم العواقب لا يجدي معه تحصيل علمي ولو كان غزيرا ٠٠!

ثالثا ـ في اطار دين الله يتساوى المؤمنون في صفـة الايمان ، هذا صحيح الا أن هناك مراتب ٠٠

« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٨)٠
و« ان أكرمكم عند الله اتقاكم »(٩)٠
و« انما يخشى الله من عباده العلماء »(١٠)٠

الله تعالى لا يبخس عباده أشياءهم حاشاه ، فالذي يشيـد بالعلماء لا يساويهم من حيث الجـزاء والدرجة بمـن لم يكابدوا عناء التحصيل العلمي ٠٠!

وكذلك لا يتساوى المؤمن الاتقى مع المؤمن الاقل منه تقوى، فالمؤمن الذي يعبد الخالق وكأنه ينظر اليـه وهـو يخشاه أشد مما يخشى النار على لحم بدنه لا يمكن مساواته بالجزاء والدرجة مع من يعبد الخالق وليس له من افعـال العبادة الا القيام والقعـود ويعصيه مرتاح البـال مطمئن النفس ولكنه اذا عصى أهون الخلق على الله أقل معصية ودون قصد أصيب بالذعر ٠٠!

(٨) الآية ٩ سورة الزمر ٠
(٩) الآية ١٣ سورة الحجرات ٠
(١٠) الآية ٢٨ سورة فاطر ٠

رابعا ـ يزعم البعض أن هناك علماء كلما يحاول أحدهم الاقتراب خطوة من ساحة الايمان بالله يجد نفسه قد تراجع عنها الى الوراء خطوات وهو يحتار ازاء هذا (التنافر) ويقول : أوليس العلم يؤدي بصاحبه الى الايمان ٠٠!؟ فها هو ذا العالم قد دنا من جدار الايمان خطوة الا أنه ارتد على عقبيه متراجعا ألف خطوة الى الوراء ، ماذا نسمي هذا غير (عدم اقتناع علمي) ٠٠!؟

انها كذلك كلمة حق أريد بها باطل ٠٠!

كيف ٠٠؟

دعنا نتساءل :

هل ان هذا العالم أقبل على اكتشاف الحقيقة صافي النية وبدون غرض ٠٠!؟

أم أقبل يستكشف على رشفات الكاس وبين دفء الفجور ٠!؟

هل جاء مستكشفا وقد نزع عنه رداء التعلق بشهوات معينة ومطامع معينة ٠٠!؟

هل قرر ابتداء أنه مستعد للتضحية بكل شيء بعد اكتشاف الحقيقة والتمسك بمتطلباتها ولو كان المضحى به أحب المطامع وأعز الشهوات الى نفسه ٠٠!؟

اذا كان هذا العالم أسير شهوات معينة ومطامع معينة حال الاستكشاف فمن المؤكد أنه لا يرحب بالحقيقة مهما

كانت ساطعة مادامت لا تسمح بوجود تلك الشهوات والمطامع وتحرم تعاطي لذائذها ٠٠!

وهذا الوضع أشبه بسماك قذر الجسم والثياب يلقي فوق رأسه وعلى ملابسه أنفس قارورة مسك فلا يجد بعد ذلك الا رائحة أكثر كراهة وتثير كل التقزز في النفس ٠٠!

صحيح أن المسك طيب الرائحة جدا ولكن السماك هو السبب في حصول عكس المنتظر لانه :

لم يخلع ملابسه
ولم يغسل جسمه
ولم يلبس ثيابا نظيفة
ولم يبتعد عن الاقذار
فهو بهذه الشروط الاربعة لو وضع على جلده أضآل قطرة من المسك لفاحت منه أزكى رائحة ٠٠!

خامسا ـ هناك حالة علماء عرفوا رجاحة دين الله وآمنوا بكل مقولاته ولكنهم لا يلتزمون بشعائر ولا يؤدون أفعال عبادة أي أنهم يكتفون بما يسمونه (ايمان نظري) ٠٠!
انه ايمان مرفوض ٠٠

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه »[11]٠

(11) الآية ٤ سورة الاحزاب ٠

قلب يؤمن به (الايمان النظري) وقلب تتوفر له الشهوات والمتع والاهواء والمطامع التي لا يسمح بها دين الله ٠٠!

ان صاحب هذا الايمان يهيىء ضده حججا قوية ويوفر براهين دامغة ، فدين الله يقرر أن المعول عليه هو الايمان والعمل الصالح ، والخطاب القرآني لا يفصل بينهما في كل مفرداته اطلاقا ، أنظر ٠٠ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات »(١٢) ٠

فهل يريد هذا العالم صاحب (الايمان النظري) أن يستدرك على الخالق سبحانه وتعالى فيما قرره من تلازم الايمان والعمل به ٠٠!؟

« قل أأنتم أعلم أم الله »(١٣) ٠٠؟!

انه في حالة أنحراف ليس غير ٠٠!
أما مقولة (ايمان نظري) فلا تخدع الا صاحبها بل هي تفضح ما وراءها من احتيال كبير وسوء أدب مع الله تعالى وتخاذل نفسي تجاه الشهوات والمطامع والاهواء الى حد التهالك تستره أوراق مثقوبة لا تقدر على اخفاء حقيقته الا أمام عمي البصيرة ٠٠!

---

(١٢) ورد هذا النص في الآيتين ٥٦ و١٢١ سورة النساء و٤١ الاعراف و٣١ الرعد و٥٠ و٥١ الحج و٧ و٩ و٥٨ العنكبوت و٧ فاطر و٥٨ المؤمن و٢٢ و٢٣ و٢٦ الشورى و٢ محمد ، وفضلا عن هذه الآيات هناك عشرات المواضع في القرآن ورد فيها الايمان والعمل به متلازمين بصيغ عديدة ومعنى متقارب ٠٠! وينظر (فتح الرحمان لطالب آيات القرآن) لفيض الله الحسني المقدسي لمن شاء الوقوف على التفاصيل برمتها٠
(١٣) الآية ١٤٠ سورة البقرة ٠

وبعد ..

ما حدود الايمان بالله المشاد على العلم والمعزز بالشجاعة..؟

ان الحدود فيما يبدو بعيدة جدا وأنأى من أن ترى اذ ان العلم المحبذ في بناء صرح الايمان واسع الى حد الاطلاق ، فأنه كل علم يرتقي بالعقل صعودا لا يتوقف وينمي الملكات اغناء بلا حد ويسمو بالسلوك تهذيبا لا ينتهي ويوفر المصالح ازدهارا بلا حصر ويثري الحياة حتى لو غدا كل انسان موسوعة لا تضاهى وامتلك مدنية بلا نظير ..!

الا أنه رغم هذا اقتضت رحمة الرحمان الرحيم أن ..

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »(١٤).

فكل انسان له أن يأخذ من ذلك العلم ما يسعه من غير مشقة أو حرج اذ أن عمر الانسان محدود وقدرته على التعلم محدودة أيضا ..!

ولكن رغم كل الامكانات المحدودة للمؤمن يبقى محكوما بقوله تعالى :

« ولا تقف ماليس لك به علم »(١٥).

---

(١٤) الآية ٢٨٦ سورة البقرة .

(١٥) الآية ٣٦ سورة الاسراء .

أي لا يجوز له أن يضع خطواته في الظلام قائلا (لا أدري ولا بد لي أن أتحرك) وانما يخطو على بينة ·

ان هذا التوجيه الرباني لا يريد منا أن نجمد في مكاننا بحجة الافتقار الى العلم بل يدعونا الى جعل حركتنا المطلوبة في منهج الله ـ وهي هائلة جدا عندما تأخذ مداها الكامل ـ مترافقة بعلم ومتسلحة بعلم ··!

الحركة في المنهج الاسلامي مطلوبة على ضخامتها ولكن لابد أن يسبقها الاستعداد العلمي المناسب حتى يكون مؤدى الفعل لزوما الى النتائج التي وعدنا الله بها ··!

وعدم تحديد العلم بأفق اللهم الا جعله مقيدا بمدى طاقة الانسان هو ما يفهم من السياق القرآني بجلاء(١٦) بل ويربط مؤدى العلم المتحري والمستوثق البعيد الاطراف بحتمية اقتراب صاحبه من الله تعالى(١٧) وحيازته المراتب العليا في رضوانه ، الامر الذي تهفو اليه النفوس المؤمنة حتى انها لا تبالي أحيانا في سبيل مطلبها ذاك أوقعت على الموت أم وقع الموت عليها ··!

أما دور الشجاعة في عملية الايمان فشأنه عظيم أيضا·· فالشجاعة لا تخفى أهميتها عند انقلاب المرء على ماضيه الخاطىء وربما كان طويلا تثقله لذائذ يصعب فطم النفس عنها وتثقله

---

(١٦) تنظر آيات التماس العلم من مثل « ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد » الآية ٦ سورة سبا ·

(١٧) « انما يخشى الله من عباده العلماء » الآية ٢٨ سورة فاطر ·

قيم مثيرة لاعجاب مجتمعه الفاسد وتثقله مغانم كبيرة تعز التضحية بها وتثقله اعتبارات أخرى ذات ضغط وتأثير ٠٠ ان تجاوز كل هذه الضغوط والمؤثرات لا يتم الا بشجاعة وربما تكون أحيانا شجاعة يندر مثيلها ٠٠!

وتطبيق لوازم الايمان ومقتضياته على النفس والمجتمع يتعذر في بعض الاحيان والاوساط ان لم يكن المرء شجاعا يهاب الخالق وحده في طاعته بما أمر ونهى ودونها لا يقيم وزنا لمهابة المخلوقين مهما يبلغ شأنها ٠٠!

ايمان يشاد بالعلم ويعزز بالشجاعة لا غرو ان أحل الله تعالى صاحبه اسمى المراتب في الحياة الدنيا والدار الآخرة فذلك ايمان الطراز الرفيع من الناس ، اذن لا يليق به في ميزان الله الا ان يكرم صاحبه بالدرجات العلى ٠٠!

ولانسان بتلك الخصائص الرفيعة أحفل بجولة مع خطاب الله للعقول أضع حصيلتها أمانة في عنقه سائلا المولى عز وجل أن يأخذ بيدي كل أمين الى أنبل المقاصد وأشرفها ويجعل الفوز حليفه في الدارين ٠

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد رحمتك للعالمين وعلى صفوة الخلق من عبادك وعلى من والاه في الاولين طرا والآخرين كما يليق بمقامه لديك عدد ما تعلم أنه الاكثر والادوم ٠٠ ربنا لك من الحمد والشكر والثناء أحبه الى ذاتك

وأجزله كلما ذكرك في السماوات والارض ذاكر وكلما غفل فيهما عن الذكر غافل ·

شاكر عبدالجبار شاكر العزاوي

بغداد
شعبان ١٤٠٣ هـ
حزيران ١٩٨٣ م

منهج الايمان عقلاني

المعرفة أساس اليقين

معرفة الشيء يجب أن تسبق اتخاذ موقف منه ، وكلما كانت المعرفة تطال أبعد التفاصيل وتتضمن أوسع احاطة كلما تسنى اعطاء الشيء ما يستحقه من القيمة والاحترام ومن هنا يأتي حسن التعامل معه وتحقيق المردود الامثل من وراء ذلك كله .

أما الجهل بالشيء وتعمد تقويمه استنادا الى الظنون فمما لا يليق بعاقل ولا ينبغي لمنصف ، وما أقوى التنديد القرآني وأكثره بهذا المسلك المنحرف التافه ، ولو أن امرءا من ذوي

الحياء والمروءة أمعن النظر جيدا في كلمات هذا التنديد لامسك لسانه في الامور كلها وفي صغير الشؤون وكبيرها لا يتكلم الا عن قناعة علم وهداية يقين احتراماً لعقله وتحاشيا لمجانبة العدل ٠

يقول تعالى :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد »(١) ٠

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا ان الله عليم بما يفعلون »(٢) ٠

« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله »(٣) ٠

منهجان ترى ملامحهما في هذه الآيات وبينهما بون شاسع :

الاول ـ منهج الله الآمر بتحري العلم واغناء العقل وتنوير البصيرة والوقوف على التفاصيل المستطاعة قبل اتخاذ موقف ازاء موضوعها العام واعتبار هذا الاهتمام أشرف العبادة ٠٠

« انما يخشى الله من عباده العلماء »(٤) ٠

---

(١) الآية ٣ سورة الحج ٠
(٢) الآية ٣٦ سورة يونس ٠
(٣) الآية ٣٩ سورة يونس ٠
(٤) الآية ٢٨ سورة فاطر ٠

منهج لا يضيع فيه أدنى حق ملتبسا بأضخم باطل ولا تفلت منه ذرة خير مخلوطة بتراب الارض شرا ، لا يجعل من الكلام المنمق شعارا لصدق المقولات والمزاعم اصطيادا للمغفلين وانما يعول على الواقع العملي مزكيا لصواب المنحى والمضمون استقطابا للنابهين٠!

الثاني ـ منهج الشيطان الآمر بادعاء العلم دون تحريه والتبجح بالعقل دون اغنائه واتخاذ موقف من الشيء دون المام بتفاصيل موضوعه بل اعتمادا على الظن وتفننا بتعاطي الكذب واتقانا لاساليب المراوغة والدجل والخداع ٠

وتوظيف هذا الاهتمام كله لاجل ماذا ٠٠؟

اتباعا للهوى وتحصيلا للشهوات ٠٠!

« وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٥)٠

وما أكثر أن ترى ظواهر صارخة ومفارقات عجيبة في المجتمع الذي يحكمه الهوى والحرص على الشهوات ، منها الادعاء بأن هذا المجتمع يعتبر جنة العدل والحق والمساواة والامان والعز والحرية٠٠الخ في حين أنك تلمس في سلوكه اليومي بوضوح من الظلم أفدحه ومن الباطل آصرحه ومن الاجحاف أثقله ومن الخوف آرعبه ومن الذل اعنفه ومن الاستبداد أفظعه ، الخ ٠٠!

---

(٥) الآية ٥٧ سورة البقرة ٠

ان المنهج الاول يريد من عباد الله أن لا تستثنوا في التزامه شيئا في الوجود ، بل حتى الخالق عزوجل الذي فطر الانفس على الايمان به ينبغي لك أن تعرفه جيدا لتزداد له وقارا وتقابله بأعز وأضخم اهتماماتك ، والاهم من ذلك لكي تأمن الانزلاق خطأ في حقه جل شأنه ٠٠

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير »(٦) ٠

انه يعيب على هؤلاء البشر لجوءهم الى الجدال في الله بغير علم يقود الى اليقين وبغير هدى يعصم من الضلال وبغير كتاب ينير الدرب أمامهم كأن يدور جدالهم حول وجوده تعالى أو حول مدى قدرته أو حول اعباء العبودية وحقوق الربوبية ومطالب الالوهية ٠٠ الجدال في الله مستنكر اطلاقا ، فكيف اذا كان بغير علم وبغير هدى وبغير كتاب منير ٠٠!؟

ان هذا الاستنكار للجدل في الله يحثنا على اكتساب العلوم المنيرة للبصائر كي لانجادل في الحقائق القائمة عن جهل ورجما بالغيب فالاطفال قد لا يؤاخذون على الهرف بما لا يعرفون أما الكبار وهم في العادة يقودون أنفسهم ويوجهون أسرهم ويسدون النصائح للآخرين وربما يقودون المجتمع فلا تقبل منهم كلمة الا على وجه اليقين سواء تعلقت الكلمة بأكل وشرب ونوم أو باختيار عقيدة تحكم الحياة ٠٠!

---

(٦) الآية ٨ سورة الحج ٠

لا يكفي أن تعرف أن الله ربك وانما ينبغي لك أن تتقصى عظمة الخالق من خلال ما أبدع في السماء والارض ٠٠! مطلوب منك أن تتعرف على ما خلق الله في الكون بقدر ما تستطيع وأن تسأل الخبير في ذلك القادر على أن يحيطك علما بمدى قدرة الخالق ويريك مدى الاتقان في خلقه ٠٠!

عليك أن تسأل الخبراء في المخلوقات ، اسأل خبيرا في الزروع التي تأكل ثمراتها وتبتهج بزينتها وتنعم بخيراتها ، وأسأل خبيرا في جسم الانسان الذي تسكنه روحك وتعيش به حياتك ويعرف الناس بشخصيتك ٠

واسأل خبيرا في الفلك عنوقائع الارض والقمر والشمس والنجوم والمجرات لتعرف أي عالم فوق رأسك وما تشكل الارض في هذا المحيط وكيف يتناغم العمل الجماعي العام بين أجرام كتلها هائلة وهي طليقة في الفضاء الا من قيود قوانين صارمة أحكم الله تصميمهاولم يتركها تعمل منذ زمن سحيق بحكم ذاتيتها بل هو قائم جل جلاله على تدبير شؤونها في كل لحظة ، اسأل خبراء في كل المجالات التي تقدر أن تسأل فيها وتحظى بجواب العالم الخبير ٠٠!

أي أن الله تعالى لا يحبذ أن تقصرمعرفتك به على ما تلتقطه الحواس وما يتامله العقل وما يزكيه القلب فقط وانما يحبذ ان

تضم الى هذه الحصائل ـ وهي محترمة بلا شك ـ معارف الخبرة والخبراء حتى يكون تعظيمك لله جل شأنه مبنيا على أرسخ علم وليس قشة في الهواء وقائما على أصلب يقين وليس تقليدا أجوف وموصولا بالعروة الوثقى وليس بخيط العنكبوت ٠٠!

ولنأخذ مثلا يلقي ضوءا على أهمية استيضاح التفاصيل لدى الخبراء :

أنت تحتاج الى أن تسأل أحد علماء الكونيات عن الشمس حركاتها المتعددة ووظائفها الخطيرة ومدى انضباط عملها وأهمية نصيب الارض من أداء هذا الجرم الكبير لمهامه ، وفيما أنت تتعرف على عظمة الخلق في الشمس ستسترعي نظرك رحمة الرحمان ٠٠!

كيف ٠٠؟

ستعلم من الخبير أن الشمس غير مربوطة بحبال كما الارض غير مربوطة ولكن اي منهما لا يقترب من الآخر الا بقدر تكون حصيلته انتظام الحياة في كوكبنا ، ان اقتراب احدهما من الآخر مليون ميل اكثر من المعتاد وهو ما يعادل حوالي واحد بالمئة من معدل المسافة بينهما لمن شأنه أن يذوي زروعنا ويضايق العديد من المخلوقات ، بل يحدث خللا في عمليات حياتنا المختلفة يؤدي بها بعد وقت قصير الى الذبول ثم الموت ٠٠!

ومن هنا تتبين لنا ملامح الاتقان واحكام الصنع في هذا

الشأن الهائل المسمى الشمس ونطلع على كيفية توفر أجل النعم من خلال سعي هذا الجرم رحمة للبشر من ربهم تبارك وتعالى٠٠؟

كيف اذا استقصيت ملامح الاتقان والرحمة في كل خلق الله المحيط بنا والذي يمكن لاسماعنا أن تتسقطه ويمكن لعيوننا أن تتقصاه ويمكن لحواسنا الاخرى أن تتلقطه ويمكن لعقولنا أن تشارفه ويمكن لعلومنا أن تتلمسه ويمكن للبشر متضامين عقولا وخبرة وعلوما أن يقفوا على دقائق قصية من أروع بدائعه ٠٠!؟

مطلوب منك أيها الانسان ضرورة أن تتحسس مدى عظمة الخلق لتعبد الله تعالى بيقين عميق وبخشوع مستفيض وأن تلاحظ مدى رحمة الخالق فيما أبدع لتكون شاكرا لانعمه عارفا لقدر جمائله ، وهذان ـ عظمة الخلق ورحمة الخالق ـ يتعذر الوقوف أحيانا على جوانب كبيرة منهما ان لم يكن مصدر التحقق والاستنارة ضليعا في العلم خبيرا في مجاله ٠٠!

فأنت قبل أن تسأل عالم الكونيات عن وضع الشمس تجاه الارض مثلا تعلم بداهة أن هذا الجرم الحار يشكل مصدر دفء وضوء لكوكبنا ولكن التفاصيل التي يضعها عالم الكونيات أمامك عن تلك المهام الشمسية لا شك أنها تغني نظرتك العابرة فتحولها من مجملة الى ذات أعماق تشد العقل شدا الى روعة خلق الله وتشد القلب شدا الى رحمة الرحمان ٠٠!

وبذلك فان الله تعالى يريدك أن تقترب منه كلما تستطيع ،

انه يقول لك اقترب ويرشدك الى الطريق الذي يختصر المسافات ويوصلك الى تلك الغاية المثلى ٠٠! انه طريق العلم طريق الهدى طريق الكتاب المنير ٠٠!

الله يدعو اذن الى أوسع المعرفة في كل شيء يراد أن يتخذ الانسان تجاهه موقفا ، فماذا نسمي تقاعس وقعود البعض عن المعرفة اذا اقتصر على أدناها ٠٠!؟

انه خلاف منهج الله ، بل انه ابتعاد عن الله ٠٠!

لان ذلك مظنة الانزلاق بغمط أقدار الاشياء ٠٠!

عندما عض المسلمون على دين الله بالنواجذ في القرون الاولى كانوا مصدر اشعاع علمي واسع ونفاذ ومشيدي بناء حضاري شامخ ورصين لانهم تعاملوا مع شتى العلوم على أساس أن تعاطيها عبادة بأعلى درجاتها ، ولكننا في القرون الاخيرة نشهد العكس فدين الله مغبون أي غبن لانه حبيس وصاية الجهلاء عليه ، نجد نصف أمي أو نصف جاهل أو نصف عالم قد فهم من دين الله شيئا وغابت عنه أشياء يصور للناس من حيث يريد أو لا يريد أن ما تمسك به يعطي نموذجا عن أتباع دين الله ٠٠!

انه تمثيل سيء لاعظم المبادىء واقدسها بل انه أسوأ أداء لامانات الخالق مع تعمد العمل خلاف مايريده عزوجل تماما ٠٠!
والله تعالى عندما يامر عبده أن يسأل ويتحقق ويستنير

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »(٧) يدعوه أيضا الى أن يكون في كل شأنه ناهجا على بينة وليس خابطا في عشواء ومنصفا في التقييم وليس ظالما في جحود « ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »(٨)

فأنت اذا استوضحت حقيقة شيء تكون سالكا طريق العلم والنور والهدى متحاشيا طريق الجهل والظلمة والضلال ، ثم اذا عملت بمقتضى الحقيقة كما بان قدرها تكون قد أنصفت نفسك اذ لم تحد بها عن سبيل الحق والعدل والاستقامة وأنصفت الحقيقة كذلك بما تستحق من الاحترام والكرامة والفضل ٠

ان قاعدة اشباع الشيء معرفة ومن ثم انصافه وبعد ذلك وضعه في مجال التطبيق السلوكي لقادرة على أن تغير حياة الانسان عندما تأسن أروع تغيير ، بل هي قادرة أيضا على أن تنأى بحياة المجتمع البشري عن الجهل والظلم والعبث وترتقي بها الى أرحب آفاق العلوم وأسمى مجالات العدالة وأرفع مستويات الحضارة ٠٠ !

وعندما نمعن النظر في سلوك معوج فان علة هذا المرض ليست الا أحد خللين :

الاول ـ ان معوج السلوك قد أعطى شيئا أكثر من قيمته ٠
الثاني ـ جحد حقيقة أمر وتصرف تجاهها بالضد مما تستحقه ٠

---

(٧) الآية ٤٣ سورة النحل ٠
(٨) الآية ٣٦ سورة الاسراء ٠

والمبتلى بأول الخللين قد تعطيه العذر اذا كان متصرفا بجهد الطاقة لا يصر على العوج وانما يلتمس دائما تقويمه باقتفاء النهج القويم وهو استزادة العلم بقصد اعطاء كل شيء قدره وما يتناسب مع قدره ، أما عند اصراره على أن سلوكه المعوج لا عيب فيه مدعيا أنه الحالة التي أملاها تحري الصواب فهنا مكمن الخطر اذ يبدو الخلل مستحكما .

وهناك نماذج عديدة للمبتلين بهذا الخلل يندرجون جملة وتفصيلا ضمن ضئيلي العلم وتابعي الهوى ، وأمر ضئيل العلم قد يهون اذ أن الاستزادة تتكفل بتقويمه أما تابع الهوى فأمره عسير لان قيود الشهوات تعميه عن رؤية الحقائق كما هي ومالم يزح هذه الغشاوة عن ناظريه فلن يتسنى له انصاف الاشياء والاستمساك بأمثلها .

أما المبتلى بالخلل الثاني فلا عذر له لانه يعرف الحقيقة ولكنه يبخس قدرها عن قصد .. انه صلف شيطاني ،أو لم يأب ابليس السجود لآدم كما أمره ربنا(٩) رغم أنه كان مستيقنا تفضيل الله للانسان وتكريمه بالسجود المطلوب ..!؟

وثمة طوائف كثيرة من البشر تحاكي التمرد الشيطاني

(٩) « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » الآية ٣٤ سورة البقرة .

باساليب لا تحصى ٠٠ انه اعتى أنواع الخلل ، انه داء لا دواء له الا الكي جهنم يصلونها وبئس المهاد ٠٠!

بعد ذلك يبرز أمامنا موضوع الغيب الذي يعتبره القرآن الكريم أحد لوازم الايمان بالله تعالى ٠٠ كيف ينظر اليه من خلال المعرفة واليقين ٠٠!؟ وهل ان معناه الايمان بالمجهول والتسليم بما لا وجود له ٠٠!؟

لا ٠٠!

الغيب لا يعني المجهول بالفهم المطلق ، والتوجيه القرآني لا يريد منا التسليم بما لا دليل عليه ٠٠! اذ لو صح هذا النمط قاعدة لكان الاخذ بالخرافات والرضوخ للاساطير أمرا لا عيب فيه ٠٠!

دعنا نبسط الصورة ٠

اذا وقفت مع انسان على ساحل البحر وسألك :

هل تؤمن بوجود اللؤلؤ والمرجان ٠٠؟

بماذا تجيب اذا كنت لم تر قطعة من هذه الكنوز في حياتك ولم تسمع عنها أي لمحة ٠٠؟

ستجيب بالنفي طبعا ٠٠!

ولكنك اذا رأيت رجلا يخرج امامك من اعماق البحر وقد

استخرج معه نفائس من اللؤلؤ والمرجان بعد رحلة غوص آخذت منه وقتا واستنزفت جهدا خاطر خلالها بنفسه بين الاهوال حتى ظفر ببغيته لا ريب أنك ستؤمن عند ذلك بوجود هذه النفائس في تلك الاعماق غير المنظورة ..!

فعدم نزولك الى أعماق البحر وعدم استخراجك اللؤلؤ والمرجان بنفسك وعدم معاناتك المخاطر التي يقتضيها الغوص هل يعني أنك آمنت بأمر غيبي لا دليل على وجوده ..؟

الجواب كلا ..!

لاننا نعتمد في تقرير الاشياء عادة ليس على العين فقط وانما على حصائل الحواس وتخريجات العقل وافتاء القلب مضمومة كل هذه المعارف المهمة بوعي وذكاء الى ما اكتسبه الآخرون عن تلك الاشياء ..!

ولاشد المنكرين على المسلمين ايمانهم بالغيب نقول ان الحضارة التي تنعم الانسانية الآن بالكثير من فضائلها تقوم في مجالات عديدة منها وخطيرة على علم الذرة وعلى افتراض وجود بروتون ونيترون داخل الذرة ، فهل أن احدا من العلماء اخترق بعينيه غلاف الذرة ورأى في مركزها البروتون والنيترون ..!؟

وهل يحق لنا ان نعتبرهم مؤمنين بأمر غيبي لا وجود له طالما أنهم يعدمون النظر اليه بالعين ..!؟
ان حضارة هذا العصر تضع علماء الذرة في قمة الهرم

العلمي لان أخطر أركان الحضارة اياها تقوم على علم الذرة ولان أولئك العلماء استخلصوا استنتاجاتهم الذرية بناء على حسابات صحيحة ..!

فلماذا لا توجه انكارك يا هذا الى هؤلاء الفطاحل أيضا بدل أن تقصره على المسلمين وهم يرضخون لامر الله تعالى ايمانا بعقيدة تتناول الوجود كله من خالق الوجود وليس في موضوع جـزئي واحد يسمى الذرة يتكلم فيه انسان قابل بطبيعته للخطأ والصواب وغير معصوم من التزوير ..!؟

الانسان عندما يأتيه رسول من الله تعالى معه أسطع الادلـة وأقوى البراهين على أن « لا اله الا الله »(١٠) وبأن الخالق « فعال لما يريد »(١١) واذا أراد شيئا كان تحققه أسرع من لمـح البصر و« لا معقب لحكمه »(١٢) وأن كل ما في الوجود من أصغر الاشياء الى أكبرها يخضع لمشيئة رب العالمين شاء المخلوق أم أبى لان أمر اكتساب الوجود أو مغادرته بيد الخالق حصراً وقال له :

أيها الانسان أدعوك الى الايمان بربك وهـذا كتاب منه عز وجل يتضمن رسالة اليك فيها تفصيل وبيان لكل شيء ، فاذا اقتنع بفحوى الرسالة وصدق حاملها وأقر بألوهية المرسل سبحانه هل يعترض على بضع نقاط غيبية طلب منه علام الغيوب اعتبارها

---

(١٠) الآية ١٩ سورة محمد .

(١١) الآية ١٠٨ سورة الرعد .

(١٢) الآية ٤٣ سورة الرعد .

مسلمات يقينية بانيا اعتراضه على أساس آنه لا يؤمـن الا بعالم المشاهدة ..!؟

اعتقد أن العقل والعلم والادلة تقتضي هذا الانسان عندئذ الايمان بتلك النقاط الغيبية وآخذها على محمل اليقينيات بـلا نقاش لانه آمن بأنه « لا اله الا هو »(١٣) « وما كان الله ليعجزه من شيء »(١٤) خاضعا له بالعبودية مسلما له بالالوهية فما معنى عدم الايمان ببضع نقاط غيبية الا انه تمرد أهوج ورفض يعبر عن غباء كثيف ..!

ولنا في اخواننا الذين سبقونا في الايمان لاسوة .

انها نعـم الاسوة وليس اقتداؤنا بهـم تقليدا كفعـل الببغاء ..!

تأمل ..

بعد حادثة الاسراء والمعراج جاء نفـر من مشركي قريش الى الصديق أبي بكر فقالوا له :

ما ظنك بمن يزعـم آنه انطلق مـن مكة الى بيت المقدس ثم عاد اليها في يوم واحد ..؟

(١٣) الآية ٢٥٥ سورة البقرة .

(١٤) الآية ٤٤ سورة فاطر .

قال :

عجبا كيف يكون هذا ..!؟

وحسبوا أنهم أوقعوا الصديق في الفخ .

فقالوا :

ان صاحبك محمد يزعم أكثر من هذا ، يدعي أنه قد عرج به أيضا من بيت المقدس الى السماء حيث قابل ربه ثم رجع الى مكة وفي أقل من ليلة ..!

قال لهم :

اسمعوا ، والله ان قال محمد ذلك فقد صدق ، انه ليحدثني بأمور بسيطة مما يعني الناس فلم أجرب عليه كـــذبا فأولى ثم أولى أن يصدق فيما يقوله عن الله تعالى ..!

انها فطنة المؤمن ومعرفة المستيقن ..!

فما أحوج الناس اليهما في هذا الزمان لاسيما منهم أتباع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وبين ظهرانيهم كتـاب الله الخالد الذي أنزله من خلال أكرم الخلق سراج هدى ورحمـــة للعالمين لا تنقضي عجائبه ولا تنفد خزائنه الى يوم القيامة .

فهل من قارىء يعقل أنفس الكلام ..!؟
وهل من متدبر يعي أفضل المعاني ..!؟
أم ان المرء يدين نفسه عندما يتعامى عن كتاب الله تعالى بينما هو يهتم بكلمات الاغاني التافهة ويشبع أقوال أهون الخلق على الله تحليلا وفي أسخف المواضيع أحيانا ..!؟

عمليــة الايمان كيــف تتم ..؟

يفهم من السياق العام لكتاب الله أن ربنا عزوجل لا يريد من عباده ايمانا من غير علم بعيد الاطراف وبدون تأمل عميــق الاغوار ، وياله من علم وياله من تأمل ..!

ومن رحمته أن لم يدع الانسان ينهج وحده في هذا السبيل وانما تدخل سبحانه ليأخذ بيده الى أدق وأرصن مناهج البحث ثم يهديه الى أقوم وأسمى سبل الرشاد وبالتالي يكافئه على هذا السعي جنة الخلد فوزا برضوانه ..!

مثلما خلق الله الانسان وسواه ووفر له كل مقومات الحياة كذلك فطره على تلمس السبيل وتمييز الحق عن الباطل ومكــن هذا المخلوق من تقبل الحق ان هو غالب هواه .. بل ووضع بين

يديه المنهج الحق الذي يصلح حياته ويضمن له الفوز برضوان ربه في الدار الآخرة ٠٠!

كيف يريد الله أن يعتقد الانسان بوجود رب العالمين ٠٠؟

وكيف يريد منه أن يعرف قدر ربه ٠٠؟

وكيف يريد منه أن يعبد ٠٠؟

رغم ان الله تعالى متفضل على الانسان بالايجاد والتكريم والنشأة ٠٠ رغم أنه متفضل عليه بكل نعم الحياة من نسمة الهواء العظيمة التكوين التي لا يستطيع الانسان الاستغناء عنها لحظات قليلة الى قطرة الماء ويالها من قطرة الى الطعام واصنافه، الى معرفة الاسماء والمسميات واستطاعة الكلام، ثم الى مالايمكن احصاؤه من النعم ٠٠ رغم هذا التفضل وما خفي منه أعظم فانه تعالى لا يريدمن عباده ايمانا يقوم على التسليم والجبر والرضوخ بلا اقتناع عقلي ٠٠!

لا ٠٠ بل ان ربنا عزوجل طلب الاقتناع العقلي المتناول بالسمع والبصر والعقل وسائر الحواس عبر حسن التأمل وعمق التفكير وجودة التخريج وسداد الحكم على الاشياء باعطاء كل شيء ما يستحقه من التقييم وبالتالي الانصياع ٠٠!

لمن الانصياع ٠٠!؟

لتنفيذ الحكم ٠٠!

أي حكم ٠٠!؟

قيمة الشيء ليست أمرا يحفظ في الذاكرة فقط وانما لها دلالة والاخذ بدلالة الشيء ووضعها في ميدان التطبيق هو النزول عند الحكم المتحقق عبر تلك السلسلة والانصياع لمقتضياته ٠٠!

انه انصياع ذاتي محبب ، أي غير مفروض بالقهر ٠٠!

أما الجانب الآخر المهم فهو الاشياء التي يراد أن نتأمل تفاصيلها لاستخراج قيمتها ثم دلالتها ثم النزول عند مقتضى حكمها فهي كل ما في الكون يطال بالسمع والبصر والعقل والحواس الاخرى ٠٠ انها عالم كبير رحيب ولكن أي جزء منه سواء كان بقربك أو بعيدا عنك لو تأملته وأصغيت لدلالته فانك ستنقاد الى ربك انقيادا ٠

نعم أي جزء ٠٠ فالصغير انه بتصورك الخاطف غير المتعمق يبدو صغيرا ، ولكنه في ذات تكوينه عظيم القدر ٠٠! أقطرة الماء تحسبها صغيرة الشأن ٠٠؟! هذا الماء الذي تعبه عبا ٠٠! أنسمة الهواء تحسبها صغيرة الشأن ٠٠!؟ هذه النسمات التي تكاد لا تحس لها بشهيق وزفير ٠٠! ونعم كثيرة العدد جليلة القدر لا تعد ولا تحصى هكذا تبدو للوهلة الاولى ٠٠!

ان ما تراه صغير الشأن ينبغي أن تسأل عنه ذوي الاختصاص

ليعطوك فكرة عن مدى قدره ٠٠ اسأل الكيمياوي عن قطرة الماء ونسمة الهواء والدقة في تكوين عناصر الاشياء المادية فسيريك العجب لاسيما عظمة التفاعل بين هذه العناصر وروعته ٠٠!

اسأل ان كنت لا تعلم أو لاتقدر أن تعلم بامكاناتك الذاتية ٠٠ اسأل عن جسم الانسان عالم الجراحة (الكسيس كاريل) مؤلف كتاب (الانسان ذلك المجهول) والحائز على جائزة نوبل ونظراءه في التخصص الذين جاؤوا من بعده ليحدثوك عن بدائع الخلق والتصميم والتدبير في الجسم والامكانات الهائلة التي زود بها ، واسأل (آنشتاين) مكتشف(١) قوانين النسبية ومتابعي تخصصه من بعده ليحدثوك عن عمل هذه القوانين في الكون المحيط بعالم الانسان الواقع في متناول الحس والتصور ٠٠الخ ٠

كثيرة هي الاسئلة في كل تخصص وعديدة هي العلوم التي يحتاج الانسان الى الالمام مجرد المام بفحوى كل منها حتى يتكون لديه تصور شمولي رصين يساعده في أن لا يمر على ما تقع عليه الحواس سريعا بل يتوقف عنده مادام يؤدي التوقف والتبصر والاستنتاج الى حكم ذي بال لاسيما المتعلق بمعرفة الخالق والاستزادة من اتساع الآفاق في تلمس عظمته ٠

---

(١) هناك خطأ شائع ينبغي ان لا يستمر ٠٠ فالبعض يسمي (آنشتاين) مثلا (واضع قوانين النسبية) في حين انه مكتشفها فقط اذ ان قوانين النسبية خلقها الله واودعها في عالمنا منذ زمن قديم جدا فهي تعمل وستبقى تعمل الى ما يشاء الله سواء اكتشف (انشتاين) البعض منها او بقيت في طوايا المجهول فهي قائمة وتعمل وفق ما أراد الخالق عزوجل لا يثنيها عن اطار ما خلقت له جهل انساني او اكتشاف انساني او تدخل انساني ٠٠!

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »(٢) ليس عيبا أن تسأل فتعلم فتفيد وأنت تخطو خطاك على بينة في الدرب السوي وانما العيب والمؤاخذة أن لا تسأل وتحكم على الاشياء من بعيد وبدون علم ودراية وبحدود ما تعرفه عنها وقد يكون بضآلة الصفر « ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »(٣) .

عجيب هو الحكم على الاشياء بدون سابق معرفة ويقين ، لم اذن اعطى الله تعالى هذا المخلوق سمعا يمكنه من استقاء العلم الى حد اليقين وبصرا يمكنه من استقاء العلم الى حد اليقين وعقلا يمكنه من استقاء العلم الى حد اليقين ..!؟

يقول صاحب الظلال :

(والعقيدة الاسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة « ولا تقف ماليس لك به علم .. ان السمع والبصر والفؤاد .. كل اولئك كان عنه مسؤولا » هذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثا ، ويضيف اليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الاسلام على المناهج العقلية الجافة .

---

(٢) الآية ٤٣ سورة النحل .
(٣) الآية ٣٦ سورة الاسراء .

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الاسلام الدقيق ..
ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ولم يبق مجال للاحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

والامانة العلمية التي يشيد بها البعض في العصر الحديث ليست سوى طرف من الامانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ويجعل الانسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

انها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب .. أمانة يسأل عنها صاحبها وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا .. أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما روى الانسان رواية وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة .

« ولا تقف ماليس لك به علم » ولا تتبع مالم تعلمه علم اليقين ومالم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بئس مطية الرجل : زعموا » وفي الحديث الآخر : « ان أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه مالم تريا » .

وهكذا تتضافر الآيات والاحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في احكامه والتثبت في استقراءاته انما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته وفي مشاعره وأحكامه فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ولا يحكم العقل حكما ولا يبرم الانسان أمرا الا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم »(٤) ٠٠ حقا وصدقا)(٥) ٠

ان الآية « ولا تقف ماليس لك به علم ٠٠ » كانت تثير في الفزع أحيانا اذ أتصور أني مسؤول لا محالة عن أشياء عديدة كان بامكاني ادراكها أو السعي لادراكها ولكني لم أفعل لسبب من الاسباب في حين أن لدي الادوات القادرة على ادراك هذه الاشياء وأقول ان معرفة أشياء كتلك التي أجهلها قد تكون لها أهمية كبرى اذا أضيفت الى مجموع حصيلتي من العلم بحيث تدخل في تعديل نواح أساسية في هذا العلم المتحصل وتصحح الكثير مما أحسبه قناعات وهو أغاليط ٠٠!

ولولا ما أجده من عذر لارهقني الفزع من معنى الآية الواسع ٠٠ كان عذري هو ضرورة الحفاظ على الموازنة في مجال

---

(٤) الآية ٩ سورة الاسراء ٠

(٥) (في ظلال القرآن) المجلد الخامس ص ٣٢٦ و٣٢٧ ٠

الاستيعاب العلمي خشية الوقوع في المتاهات التي يضيع فيها الوقت هباء أو تشغل المرء في القليل الاهمية دون الانصراف الى الاهم ، والنية هي المعول عليه في هذا التوجه الى التحصيل والاستزادة من معرفة الاشياء ٠

فمن أراد الموازنة بين قيم الاشياء والاخذ بالاهم قبل المهم خشية الضياع في المتاهات واهدار الوقت فيما لا طائل تحته فهو صادق معذور لاسيما ان استأنس بمشورة أهل العلم والخبرة في التماس الاهم قبل المهم ، ومن أراد الاكتفاء بتناول ما تقع عليه اليد كيفما اتفق مهملا السعي الى اهداف محددة واكتشاف ما وراءها فهو الملام والمحاسب عما أوتي من قدرات وأدوات لم لم يستغلها فيما لا يسع المرء جهله ٠٠!؟

القرآن الكريم منذ آياته الاولى نزولا ـ المكية ـ دعا كل انسان عاقل الى الايمان شافعا الدعوة برسم الطريق الامثل المؤدي اليه وطالبا منه أن يحرص على سلوك هذا الطريق وصولا الى ذلك **الايمان** ٠

مثلا ٠٠

« وفي الارض آيات للموقنين »(٦) ٠

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ٠٠ والى السماء كيف

(٦) الآية ٢٠ سورة الذاريات ٠

رفعت ‧‧ والى الجبـال كيـــف نصبت ‧‧ والى الارض كيـف سطحت »(٧) ‧

« ألم نجعل الارض مهادا ‧‧ والجبال أوتادا ‧‧ وخلقناكم أزواجا ‧‧ وجعلنا نومكم سباتا ‧‧ وجعلنا الليـل لباسـا ‧‧ وجعلنا النهار معاشا ‧‧ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ‧‧ وجعلنـا سراجا وهاجا ‧‧ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ‧‧ لنخـرج به حبا ونباتا ‧‧ وجنات ألفافا »(٨) ‧

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ‧‧ خلق الانسان من علق ‧‧ اقرأ وربك الاكرم ‧‧ الذي علم بالقـلم ‧‧ علم الانسان مالم يعلم »(٩) ‧

« يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم ‧‧ الذي خلقـك فسواك فعدلك ‧‧ في أي صورة ما شاء ركبك »(١٠) ‧

بل انه تعالى يخاطب عباده بشكل أقرب جدا من ذلك «وفي أنفسكم أفلا تبصرون »(١١) أنظر أيها الانسان الى نفسك وتأمـل أجزاء هذا الكيان جيدا ثم استرشد « أفـلا تبصرون » لم يقـل أفلا تنظرون ولعله تعالى أراد أن ينصرف الذهن فورا الى توظيف

---

(٧) الآيات ١٧ـ٢٠ سورة الجاثية ‧

(٨) الآيات ٦ـ١٦ سورة النبا ‧

(٩) الآيات ١ ـ ٥ سورة العلق ‧

(١٠) الآيات ٦ ـ ٨ سورة الانفطار ‧

(١١) الآية ٢١ سورة الذاريات ‧

البصيرة والبصر في عملية التطلع الى التكوين المعجز في الانسان القريب منه قرب الدم والهاجس ، فثاقبا البصيرة والبصر اذا تعاضدا ثم جالا في هذا التكوين استشرفا البعيد وسبرا العميق واستخرجا النفيس ..!

وفي التعبير القرآني « أفلا تبصرون » اشارة أخرى يفهم منها أن استجلاء الانسان لروعة الخلق في نفسه يقتضي استخدام البصيرة أكثر من استخدام البصر ، فلغة الاحاسيس تتفهمها بصيرة العقل بوضوح وعمق وقوة بينما لا تلتقط منها العينان الا اليسير .

ان عملية التفكير في عقل الانسان مثلا وعملية الالم في قلبه وسائر عمليات العقل والقلب والحواس وكذلك الشعور بأداء العديد من أجزاء الجسم لوظائفه أفعال لا يطالها الانسان بعينيه لتملي روعة الخلق فيها ولكنه يراقبها بامعان وهي متطايرة داخل جسمه بجهاز معنوي أسميناه اصطلاحا (البصيرة) يستطيع أن يجول في عالمه الداخلي المحسوس كله . ينزل الى اعمق أغواره ويحلق في أبعد آفاقه ، ويسمي كثيرا من المسميات الحسية بأسمائها ويستخرج من أعاجيبها الغزير دون حاجة لتدخل العينين ..!

ولنقرأها ثانية « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ..!

ان الله لم يقل للانسان في تلك الآيات أنا ربك وكفى فما

عليك الا الايمان والتسليم وانما رسم له الطريق القويم الموصل الى الايمان بعد أن أقنعه في وقت واحد بأن سلوك هذا الطريق هو دليل **رصانة العلم ورجاحة العقل وصحة الاختيار** ٠٠ أي يجد الانسان في ثنايا تلك الآيات (دعوة الحق) و(الطريق اليها) و (الاقناع بالاختيار) ٠٠!

دعوة للايمان «بربك الكريم» **طريقها القويم هو التفكير** في الاشياء المحيطة بنا «الابل كيف خلقت» «والسماء كيف رفعت »(١٢) و« الجبال كيف نصبت »(١٣) و«الارض كيف سطحت »و« خلقناكم أزواجا » و« نومكم سباتا » و« الليل لباسا » و « النهار معاشا»

---

(١٢) العالم القح لا يفرق من حيث الاعجاز الخلقي بين « الابل كيف خلقت » و«السماء كيف رفعت » فعالم الاحياء يملكه الاعجاب بعظمة صنع الله في الابل كيف صممت هذا التصميم الموافق للبيئة والمناسب لحاجة الانسان ، وعالم الكونيات يملكه الاعجاب بعظمة الفضاء الواسع وكثرة ما فيه من اجسرام وصرامة النظام الهائل الذي يحكمه بلا انقطاع منذ مليارات السنين ٠٠ ان محصلة العالمين على اختلاف مجاليهما تكون من حيث الاعتبار واحدة ومؤداهما من حيث الخشوع لله يكون واحدا ٠٠!

العالم القح لا يميز بين النملة واضخم المجرات في عملية الخلق والتدبير والابداع ٠٠ فالامر اذن ليس يدعو الى الضحك كما يفعل بعض البله الغارقين في الجهالة عندما يمر عليه « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ٠٠ والى السماء كيف رفعت » معتقدا ان الابل لا شيء ازاء قبة السماء ومستنكرا ترادف(الضئيل جدا) و (الهائل التكوين والابعاد) ٠٠!

(١٣) عندما يريد الله من عباده النظر الى« الجبال كيف نصبت » مثلا فانه تعالى يخاطب بذلك المرء الذي يستعمل عينيه بشكل رئيس طلبا للاعتبار ويخاطب العالم بجيولوجيا الارض والبيئة الذي يستعمل في عملية الاعتبار فضلا عن عينيه كل ما تراكم لديه من علم تفصيلي سديد وخبرات ينفرد بها المتخصصون ذوو الباع الطويل ٠

انها لغة الخالق في دعوة المخلوقين ٠٠ يا لها من لغة تخاطب الانسان البسيط فتهز كيانه وتخاطب فطاحل العلماء بالعبارة اياها فيشعرون بضآلة علومهم وكل خبراتهم ازاء خطاب خالق الخلق ومالك الملك ٠٠!

و « فوقكم سبعا شدادا » و« سراجا وهاجا » و « ماء ثجاجا » و « حبا ونباتا » و « جنات ألفافا » ثم أيها الانسان انه ربك « الذي خلقك فسواك فعدلك ·· في أي صورة ما شاء ركبك » ··!

انها دعوة تهز الانسان العاقل من أعماقه ·

وطريق واضح حيث لا ظلمة ولا عوج ولا مخافة ·

واختيار يزكيه العقل الحر الذي لا تكبله الاهواء ·

دعوة لا منافس لها اذ أنها من خالق الكون الله الاحد الذي يخاطب عقل الانسان ويعرف جيدا تفاصيل ما يدور فيه ويخاطب جوارحه ويعرف جيدا اللغة التي تفهمها ويخاطب كل كيانه ويعرف جيدا مواطن التأثر فيه ·

هل ثمة منافس يرقى به الشأن الى عظمة الخالق عزوجل ··!؟

وهل ثمة مبدأ يفهم عقل الانسان وحواسه وينظر الى كل جزء في كيانه كما ينظر رجل المختبر الى قطرة ماء تحت المجهر ··!؟

لا بل ان الله :

« أقرب اليه من حبل الوريد »(١٤) ·

(١٤) الآية ١٦ سورة ق

و « يحول بين المرء وقلبه »(١٥).

هل ثمة مبدأ بمقدوره أن يشغل كيان هـذا المخلوق في السر والعلن والصغيرة والكبيرة كما يفعل الاسلام ..!؟ وبحيث يتدخل في كل حركة تبدر منه ويكون له ظل على ما ظهـر وما بطن ، ان عمل شيئا كان الاخلاص والاتقان وابتغاء نفع العباد ورجاء حسن الثواب عند الله يوم الحساب شاغل عقله ومحرك طاقاته ، وان امتنع عن ارتكاب شيء كان لزوم الصواب وداعي المروءة وحسن الخلق ودفع الاذى عن العباد وخشية الخالق ومخافة العقاب يوم القيامة ضوابط تنتشر في ارجاء كيانه تحجمه عن الفعل الناقص أو المريب وتحفزه الى أن يكتسب في دنياه ما يليق بالمراتب العليا في الآخرة ..!؟

هكذا يقتنع الانسان بهذا الصراط السوي والنهج العظيم .!

هكذا لا يجد اختيارا أصح من الانقياد لربه ولا يرى جرأة أكبر ولا شجاعة أسمى من مغالبة الاهـواء الطائشة والعوارض اللاموضوعية استمساكا بحبل الله المتين ..!

انه صراط الله فأين منه مبادىء الارض الوضعية التي تجعل البشر حقول تجارب لتكرار الاخطاء المفضوحة قبل أن تقع .. ان هي خاطبته فبنظريات قاصرة لم يثبت صدق دعواها ولا تتجاوز في المخاطبة جزءا جد يسير من حياة الانسان بل انها

(١٥) الآية ٢٤ سورة الانفال .

لا تتجاوز بضعة أحوال في المجتمع الذي يعيش فيه أما الــذي وراء هذا المجتمع فـلا يعنيها من قريب ، والــذي وراء المظهـر الانساني من أفعال جسمية وسـلوك نفسي وعالم رحـب من الاخلاق والمثل لا يعنيها كذلك ، أما الذي وراء الحياة أي مابعد الموت فأفق لا يعنيها البتة ووجدت فيه (عذرا) يقنع البسطاء بدعواها أنه (عالم غيبي) ..!

(عالم غيبي) ..!

شيء مضحك حقا ، وشر البلية ما يضحك ..!

أتدري كيف ..؟

هو أشبه بادعاء الجاهل أن علم الالكترون عالم غيبي لانه غير مطال بالعين وانما بالافتراض العلمي ..!

ان قصور البعض عن معرفة علم الالكترون وصلفه الشديد هما اللذان جعلاه يدلس على الآخرين باطلاق تلك الدعوى (عالم غيبي) بقصد الانتقاص من شأنه ..!

أفلا يكون الامر مضحكا للعالم المحنك الضليع بمفردات علم الالكترون وتفصيلاته عندما يسمع مدعيا يزعم أن علـم الالكترون (عالم غيبي) لانه لا يقوم على سند عياني ..!؟

ان ذاك (العذر) لا يوهم الا البسطاء .

فالعاقل عندما يجد هناك دعوة يخاطب الله من خلالها كل جزء في الكائن البشري بشكل علمي رصين ويستوعب بمنظوره الدنيا والآخرة لا يستطيع أن يصغي باحترام لمبدأ انسان ضيق النظر محدود الافق يلتمس (اعذارا) مثل (عالم غيبي) تغطية للجهالات التي يعانيها ، بل و (يدين) بهذا (العذر) العقلاء الذين احترموا معطيات العقل والعلم والخبرة وملك عليهم نداء الله كل شيء ..!

المنهــج المحيط بالنفس الانسانية

من هو الانسان في تكوينه النفسي ··؟

آهو ابن القرون الاولى ··؟

آهو ابن القرون الوسطى ··؟

آهو ابن القرون الاخيرة لاسيما العشرين الميلادي ··؟

انه في كل القرون منذ آول عهده مع الارض والى يــوم يبعثون هو الآنسان ذو النفس التي تشترك لدى كل البشر في آساسيات تكوينها واصول فطرتها ·

ميقال انه عالم رحب فسيح ذلك هو عالم النفس الانسانية منذ الانسان الاول والى الانسان الاخير بمختلف الازمنة وتباين الامكنة وشتى المؤثرات وتغاير النوازع وتناقض التطلعات ٠٠!

وقد يبالغ البعض فيقول انه عوالم من الانفس وبمقتضى عدم التطابق يزعم أن لكل نفس عالمها الخاص الذي لا تنضبط وتقاد فيه الا بقانون يصلح لها دون اشتراك نفس أخرى معها اي أن لكل نفس مقادها المستقل ومنظم شؤونها المستقل وقانونها المستقل ٠٠!

حسنا ٠٠

ما رأيك بأن هناك قانونا اوحد وضع ليحكم البشرية منذ أول نفس منها والى آخر نفس تلتزمه كل الانفس فيستقيم شأنها ويلبي جميع متطلباتها ويعطي للحيـــاة أسمى مبرر للكينونـة والوجود ٠٠!؟

تسالني عن هذا القانون الاوحد أو المنهج المحيط بالنفس الانسانية ماهو ٠٠؟

دعني الآن أؤجل الاجابة لاسالك :

قل لي من بمقدوره أن يعد قانونا أوحد لكل البشرية من مبتدئها الى منتهاها فوق الارض ٠٠!؟

أظنك تستعرض بذهنك الآن صعوبة تشريع قانون وضعي

يحكم جزءا جد بسيط من مجتمع العالم في قرننا الحالي مثلا ولفترة جد يسيرة بحيث يكون خاليا من الثغرات والنواقص والتناقضات ٠

كيف اذن بهذا القانون الاوحد الذي يجمع البشرية كلها عليه ايمانا بدون حدود وتطبيقا منقطع النظير رغم الفروق النفسية الهائلة بين عصر وعصر ومكان ومكان ومجتمع ومجتمع وانسان وانسان ٠٠!؟

وأريدك أن تدع سؤالي جانبا وتتفكر قبل الجواب عليه بخلق الانسان وتصميم الانفس وفق الطراز الذي نراه سواء ما تتبعناه عبر التاريخ منذ أقدمه وهذا النموذج الماثل أمامنا أنت وأنا والآخرون ٠٠ الا يدعو هذا الامر كل عاقل أن يتفكر فيه لينظر من أين جاء الانسان ٠٠!؟ ولماذا ٠٠!؟ وكيف بلغ ماهو عليه ٠٠!؟ والى أين المصير ٠٠!؟

ويحسن في هذا التفكير أن يكون المرء مستقلا عن تأثيرات المحيط والاستقراءات الجاهزة لمن أقاموا أنفسهم أوصياء على البشر لاجل تنمية أطماعهم الخاصة ونزعاتهم الشريرة ٠

اعتقد أن مسالة الخلق والخالق ستتفاعل عميقا لدى التفكير والتحري والتحليل والاستنتاج حتى يصل الانسان لا سيما ذي القدر المحترم من غناء المعلومات وجودة الرآي وسداد العقل الى ان المخلوق الانساني ينطق كل جزء فيه ويشير الى ابداع الخالق

وتدبير الخالق وعظمة الخالق ثم يرى نفسه في نهـــاية المطاف واقفا على الجسر القائم بين الله تعالى وعباده الصالحين ٠

وبعد هذا الاقتناع أجدك تجيبني عـــلى السؤال المطروح آنفا خير اجابة تدل على فكر سليم وعقل رصين ٠٠ ستقول : ان الله تعالى خالق الانسان ومبدعه ومدبر شؤونه والمهيمن على كـــل مقدراته في الدنيا والآخرة لهو جل جلاله أقدر على ايجاد ذلك القانون الاوحد وأحق من سواه بفرض هذا القانون على عباده٠

ومن يا ترى يكون سواه ٠٠!؟

امخلوق من مخاليقه يمكـــن أن ينافسه في ايجـــاد القانون وينازعه هذا الحق ٠٠!؟

هراء ، اذ لا أحد يستقل بهذا الاختصاص غير الخالق ولا أحد بمقدوره أن يضارعه ولو بجزء ضئيل مهما كان يسيرا ٠

حسنا ٠٠

ناتي الآن الى القانون الاوحد الـــذي سنه الخالق عزوجل للبشرية كلها على لسان الرسل والانبياء عليهم أفضـــل الصـــلاة والسلام وتضمنته الكتب المنزلة التي تدور تفاصيلها حول محور القانون الاوحد رغم تنوع موضوعات التفاصيل ورغم أن كـــل رسالة جاءت استكمالا للتي سبقتها حتى اكتملت كلها بالاسلام، المهم أن البشرية منذ أول أيامهـــا كانت مستعدة لتطبيق هـــذا

القانون الاوحد وتبقى هكذا حتى لو بلغت الحياة أوج رقيها المادي اذ أن تفاصيل الرسالات المتدرجة مع البشر في مسالة الارتقاء المادي تكفلت بمعالجة وضبط هذا الامر وبما يؤدي أخيرا الى افضل التزام بالقانون الاوحد واسمى تطبيق له ٠

واليك هذا القانون مجملا بكلمات ربانية عددها قليل ولكن مدلولها بضخامة مجموع آلرسالات والتعاليم التي جاء بها الرسل والانبياء الى البشر على مدى قرون لا يحصيها الا الله عزوجل :

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »(١)٠

وتأمل :

« وان من أمة الا خلا فيها نذير »(٢)٠

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ٠٠ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما »(٣)٠

(١) الآية ٣٦ سورة النحل ٠
(٢) الآية ٢٤ سورة فاطر ٠
(٣) الآيتان ١٦٣ و١٦٤ سورة النساء ٠

« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون »(٤).

وكما ترى فان هذه الآيات تخبرنا أن التوحيد كان المحور الاساسي لجميع الرسالات ، اما التفاصيل فكان شأنها في كل حقبة هو تمكين البشرية من تحقيق منهج التوحيد وفق ارادة الخالق في التدرج مع عباده بتفاصيل التكليف من حدها الادنى الوارد بأول الرسالات ووصولا الى حدها الاعلى وهو اكتمال الدين بآخر الرسالات .

وفي هذا الموضوع جانب على قسط كبير من الاهمية هو ضرورة التأمل في أن الله تبارك وتعالى بكونه خالق النفس الانسانية عارف بتفاصيل تكوينها يعرف الزوايا والمنعطفات والضيق والسعة في دهاليزها ولا تخفى عليه رغباتها الكاذبة منها والحقيقية مهما تموهت ولا تفلت منه أي حركة فيها بكل ما يرتبط بها من دوافع وأغراض « ونفس وما سواها »(٥) وهو سبحانه خبير بما يصلح شأن هذه النفس في الحياة التي انشأها هو أيضا وفق ما يريد من النفس أن تؤديه « لننظر كيف تعملون »(٦).

فالله جل ثناؤه وحده القادر على الاحاطة بالنفس التي تكاد تبدو لمخلوق آخر سواها أشبه بعالم مجهول الابعاد والاعماق

(٤) الآية ٢٥ سورة الانبياء .
(٥) الآية ٧ سورة الشمس .
(٦) الآية ١٤ سورة يونس .

والمفردات وهو وحده القادر فعلا على وضع قانون يحكم البشر في ضوء تكوينهم الذي ابدعه هو ويدبر شأنه هو ٠٠ انه قانون معجز حقا في نظر العقلاء كما الانسان خلق معجز حقا في نظرهم ٠٠ اعجاز يليق باعجاز ولا يعطي ثماره الكريمة الا في ظروف هذا التجانس والتلاقي ٠٠!

أما سوى الله تعالى من المخاليق ان أراد أن يشيح بوجهه عن أمر الخالق وينازعه الحكم فيشرع للناس ما يستعبدهم به ـ في المحصلة النهائية شاءذلك أم أبى ـ تحت أي واجهة من التبريرات فشأنه عجيب حقا ٠٠!

انه اعمى وأتباعه أشد منه عمى ٠٠!

قرأت لكاتب فاضل قوله :

(الانسان يفسد ويصلح تبعا لوحي غريزته وخضوعا لهوى منفعته ٠٠ وهل الانسان الا كائن تؤثر فيه تيارات مختلفة تعصف به مرة وتغرقه أخرى ، تنأى به عن شاطيء الامان وقلما توصله اليه ٠٠ تيارات لا تكاد تنحصر ٠٠ وراثة تحمل خصائص آباء وأمهات امتد بهم الماضي السحيق وبيئة تحيط به من كل مكان ، مشاعر نفسية عديدة يتكون منها مزاجه فيعتل أو ينحرف ٠

وكما أن الانسان ابن أبويه هو ابن شعبه أيضا تحد من رغباته الخاصة قيم مجتمعه بصرف النظر عن سلامتها أو ضآلتها تتحكم فيه طريقة حياته وأسلوب معيشته وسائر ظروفه الشخصية ٠٠

وكل هذه بلاشك مؤثرات على فطرته وفكره وأخيلته وعواطفه ..
فاذا طالب غيره أن يحتكم الى ما يراه هو خاصة أو يحس به كان متجنيا على غيره الذي يخالفه فيما يرى ويحس)(٧) .

من خلال ملاحظتي لاكثر القوانين والمبادىء التي دبجها يراع البشر لتكون بديلا عن منهج الله وملاحظتي لاكثر مجتمعاتها وجدت أنها تتحاشى تناول الافق الداخلي للانسان لانها تعتبر ذلك (الافق المغمور) أشبه بالدهليز المظلم أو العالم المجهول الذي يجرها ان هي دنت منه الى جوانب لا تريد الاقتراب منها اذ تخشى (التورط في الغيبيات) كما يبرر هذا الهروب بعض المتفلسفين ..!

ومن هنا نرى أن الافق النفسي قد ترك في قبة القوانين الوضعية لكل فرد يتصرف فيه كما يشاء وكما يجتهد وكما يحلو له ما دام لا يخرج عن الاطار العام لهذه القوانين ..!

ولقد سمعنا صيحات كثيرة تتردد من اتباع هذه القوانين تقول ان هناك أسئلة على جانب خطير من الاهمية لا تجد جوابا في اطار المبدأ الارضي المعتنق ولا لدى مؤلفيه من القادة والمفكرين .

وكثيرا ما كانت هذه الصيحات المفعمة نفوس اصحابها بالقلق والحيرة والاضطراب سببا يدعو الى لفظ تلك المبادىء

(٧) الدكتور محمد ألقيعي مقاله (منطق المسلمين في التسليم والنظر) المنشور في مجلة الفيصل السعودية عدد شباط ١٩٨٣ .

بعد الضيق بها ذرعا اذ آنها تفتقر الى الاستيعاب المنطقي المقبول لتساؤلات النفس التي يجدها المعاني أساسية في الغالب وليست هي من قبيل الامور التي لا يتدخل فيها المبدأ ولا تعنيه ، فاذا كان المبدأ الارضي المعتنق لا يتدخل في مثل هذه الحاجات الاساسية فبماذا يتدخل ٠٠!؟

آهو يهتم بالقشور وتنميقها ولا يلتفت الى الجوهر ٠٠؟!

(اذن فليذهب المبدأ الى الجحيم) ٠٠ هذه آخر عبارة يطلقها الكثيرون ويديروا ظهورهم متجهين الى ما يشفي الغليل ويذهب السقم ويجد التجاوب المعقول والعميق في أغوار النفس ٠٠!

يقول هذا كل واحد من هؤلاء رغم طول الزمن الذي أمضاه في احضان ذلك المبدأ الملفوظ ، ويكفر به رغم آنه كان (الموجه والملقن والمانح للفرص والمعزز للتجربة) ٠٠!

يا للخيبة ٠٠!

« فاما الزبد فيذهب جفاء وآما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »(٨) ٠

عيب يشين آدمية الانسان ويزري بكل قيمه ان هو نحى قوانين الخالق جانبا واستمد قوانينه من مماثل له في الانسانية ٠

---

(٨) الآية ١٩ سورة الرعد ٠

ان العمى هو الذي يدفع الانسان الى ارتضاء ذلك عندما يتشبث بمصالح مهما كانت في نظره ذات حجم فهي صغيرة جدا فنراه لا يبالي لاجل هذه المصالح ان يهدر كرامته ويرتضي لنفسه الهوان مؤلها احد المخاليق تحت اي ستار وناسيا الخالق الذي لا تخفى عليه خافية .

والانسان العاقل يقتضيه الادب الجم مع ربه قبل مسألة ان تكون قوانين الله المراد تطبيقها على العباد في شؤون حياتهم هي احق واجدى من سواها بالالتزام والتنفيذ ان لا يسلم قياد نفسه الا لمن خلقها نعم الخلق وسواها ابدع التسوية ودانت له بحق العبودية حتى لو عرضت امامه قوانين المخاليق بازهى حلة وسار في موكبها اكثرية الناس وحتى لو كان هناك من يطبق قوانين الله بما يسيء اليها وحتى لو كانت الاقلية تلاقي من اجل تمسكها بقوانين الله عذاب اشد المخاليق جبروتا .

وما اقوله هنا ليس افتراضات بل يخبرنا القرآن الكريم ان اشياء من ذلك قد حصلت فعلا .. لنقرأ قوله تعالى وهو مثل واحد :

« قتل اصحاب الاخدود .. النار ذات الوقود .. اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود .. وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد .. الذي له ملك السموات والارض والله على كل شيء شهيد .. ان الذين فتنوا المؤمنين

والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق »(٩) ٠

الموضوع المباشر الذي تتحدث عنه هذه الآيات هو كما يقول صاحب الظلال (ان فئة من المؤمنين قبل الاسلام قيل انهم من النصارى الموحدين ابتلوا بأعداء لهم طغاة أشرار قساة ارادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم ٠٠ فشق لهم الطغاة شقا في الارض وأوقدوا فيه النار وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بتلك الطريقة البشعة ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق يحول اجساد المؤمنين الى رماد ٠

وما كان لهؤلاء المؤمنين ذنب عندهم ولا ثار : « وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله العزيز القادر على ما يريد الحميد المستحق للحمد في كل حال والمحمود بذاته ولو لم يحمد الجهال ٠٠! وهو الحقيق بالايمان والعبودية له ٠

لقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم مقابل الهزيمة لايمانهم ٠٠ ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ٠٠؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ٠٠؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى رخص الحياة بدون عقيدة وبشاعتها بلا حرية وانحطاطها حين يسيطر الطغاة

---

(٩) الآيات ٤ـ١٠ سورة البروج ٠

على الارواح بعد سيطرتهم على الاجساد ۰۰! انه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الارض۰۰ ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق آجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار ۰۰! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ولاعدائهم الطاغين حساب ۰

ان عبيدا من رقيق هذه الارض ، عبيد الواحد من البشر ليلقون بأنفسهم الى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه أو لمحة رضاء تبدو في وجهه وهو عبد وهم عبيد فكيف بعباد الله الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله « الذي له ملك السموات والارض » العالي المهيمن ۰۰!؟ آلا هانت الحياة وهان الالم وهان العذاب وهان كل نفيس عزيز في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الاوحد العظيم ۰

فماذا تكون الحياة التي يضحي بها المؤمن وهي ذاهبة لا محالة ۰۰!؟ وماذا يكون العذاب الذي يحتمله وهو موقوت غير دائم بل بعده الجزاء الكريم ۰۰!؟ ماذا يكون هذا كله الى جانب قطرة من ود الله والى جانب لمحة من ذلك الايناس الحبيب ۰۰!؟)(۱۰) ۰

والآن يا صاحبي دعنا نتساءل :

هل شهد التاريخ البشري تضحيات من آجل المعتقد على هذا

---

(۱۰) (في ظلال القرآن) المجلد الثامن ص ٥٢٥ ـ ٥٣١ اقتباس بتصرف ۰

المستوى الوارد في سورة البروج مثلا ..!؟

الجواب لا بالتأكيد ..!

والا كيف ينوه ربنا بعباده هؤلاء في كتابه الخالد والنص لا يخلو من ايماء المباهاة بهم والحث على الاقتداء بصلابتهم ..!؟

وفي الحق انهم أهل لما حـــازوه من تشريف وتكريم دون التقليل من تضحيات اخوتهم في الايمان على مدار الزمان . !

ان الفرق بين تضحية لاجل انتصار منهج الله وبـين تضحيـة لاجل قانون وضعي من صنع المخاليق لهو أشبه بالفرق بين الفوز بالجنة وبين القاء النفس في التهلكة وكذلك أشبه بالفرق بـين خلق أبدعه الحكيم الخبير ويقوم عـلى تدبيره أبـدا وبـين دمية يصنعها الانسان يحف بها الفناء من كـل جانب ويجللها النقص الكبير لانها عديمة الروح وتفتقر الى الابداع .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق » ..!؟(١١).

أفمن يخلق الخلق العظيم وبيده مقاليد كل شيء كمن هو مخلوق ولا يملك من أمر نفسه شيئا ..!؟

انها لسخرية كبرى أن يعطي انسان قياد نفسه لانسان آخر مماثل له في الانسانية بدل أن يقدم هذا الحق لخالقه رضوخـا للعبودية واحتراما لوضع الامور في نصابها ..!

(١١) الآية ١٧ سورة النحل .

منهـج الله تبيان لـكل شيء

هناك (مؤمنون) بالخالق ذوي اتجاه عجيب ٠٠!

انهم يلهثون خلف كل ناعق ولو كان هدفه الابتعاد عن منهج الله واستقطاب العباد حول مبدأ أرضي وضيع ٠٠ ولكن أيا من هؤلاء اللاهثين يحاول ازاء تساؤلاتنا عن مواقفه المريبة أن يرسم أجمل الصور لايمانه بالخالق عزوجل ثم ينطلق ـ وهذا موضع العجب الاشد ـ الى أن يبني من تلك الصـور القوليـة تبريرات العزوف عن تفاصيل منهج الله ويقول ان ما يكفيه هو أخذه روح (هكذا) المبادىء الالهية التي تدعـو في جملتها الى العدل وأنا أسعى الى تطبيق العدل وفق حالة العصر الذي أعيشه وتدعو الى الاخاء وأنا أسعى كذلك الى تطبيقه وفق متطلبات المعاصرة وتدعو

في جوهرها الى قيم كثيرة أخرى يمكن استخلاصها ثم تطبيقها وفق ما ينسجم وأوضاعنا العصرية ..!

ولا أريد أن يذهب بك الظن الى أن صاحب هذه الاقوال صادق فيما يدعيه بتطبيق العدل والاخاء والقيم الاخرى كما يتشدق .. فهو حتى بهذا الاجتزاء المنكر نجده مجانبا للحقيقة فيما يزعم ، فالعدل الذي استله (استخلاصا) من (روح المبادىء السماوية) انما هو في ساحته ظلم أفدح الظلم ، وكذلك الاخاء الذي يدعيه انما يتحول في مجتمعه الى عداء الاخوة وألد الخصام وهكذا الشأن في بقية القيم التي (استخلصها) من (مجمل المبادىء السماوية) وراح يطبقها في الارض اذ أن حصيلة عباد الله اللاهثين وراءه تكون نقيض المتوقع والمرجو تماما .

ان هذا الفعل يلوح أمامي شبيها بفعل من أعجب بعيني فتاة ولم يلتفت الى تكوينهما الجميل ضمن أجزاء الجسم مجتمعة فاقدم على اقتلاع العينين واذا به قد انتزع لحمتين لا روح فيهما ولا معنى ثم بعد حين يضيق ذرعا بمثار اعجابه لرائحتهما الكريهة فيهرع الى دفنهما بالتراب ..!

والقول بـ (استخلاص جوهر الاشياء) يشير الى احتوائها على غث وسمين وبما أن الغث غير مرغوب فيه ويجتنب لتحاشي أضراره اذن يقتصر (العاقل) على استخلاص السمين والاقتصار عليه التماسا لمنافعه..وهكذا هو بالضبط شأن الذي(يستخلص) القيم من (مبادىء السماء) ..!!

هذا (العاقل المستخلص) يفهمنا من حيث يريد أو لا يريد أن (مبادىء السماء) ليست كلها صالحة لاي عصر ولاي مجتمع ولاي انسان (أي خلافا لتعهد الله تعالى بصلاحها مجتمعة ضمن المنهج الواحد لكل زمان) ولذلك فانه يأخذ من هـذه (المبادىء السماوية) كل ماهو (لب) ويـدع (القشور) يتشبث بهـا (متحجرو العقل) ٠٠!

ولربما (يعتب) هذا (العاقل) في دخيلة النفس أو في المجالس الخاصة على رب العباد (لم أنزل مبادىء فضفاضة جدا ولا تليق جملة وتفصيلا بكل العصور والمجتمعات) ٠٠!؟ واذا (تكرم) والتمس (العذر) لذلك يشبه الامر بمن أعد طعامـا كثيرا مختلف الاصناف ليأخذ منه أي من المدعوين ما يحتاجه أو ما يستطيبه ويدع الباقي ٠٠!!

وتفهم من كلام (العاقل المستخلص) أيضا أن ربنا سبحانه كأنه آمر عباده بأسماء قيم معينة ثم ترك لهم تطبيق مسمياتهـا وفق التفاصيل والكيفيات التي تروق لكل واحد منهم أو لكـل جماعة ، وهذا افتراء على الله تعالى لان الدارس لكـلام العزيز الحكيم يجد أنه يحدد المنهج الرباني كاملا بكـل تفاصيله من أصول وفروع وقواعد ذات ملامح يحكمها اطار واضح واحد ٠

وفي القرآن الكريم كثيرا ما نجد حديثا عن أدق تفاصيـل المنهج ، فاذا كان الامر كما يزعم المفترون لم لم يضرب القرآن الكريم صفحاعن ذكر التفاصيل الدقيقة جدا ويترك شأن التفصيـ

بها للناس في كل زمان وكل مكان كما يرغبون وكما يحلو لهم وكما يوافق أمزجتهم ..؟!(١).

انه الافتراء يهدف في التحصيل النهائي له أن يصرف القلوب عن الانقياد لمنهج الله والتمسك بالمنهج الارضي الوضيع ولا تخلو أساليبه من مكر واحتيال « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله »(٢)« ويمكرون ويمكر الله »(٣)« انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا »(٤).

ومن ذلك المنطلق الخبيث أيضا تسمع من شخص آخر ان كتاب الله القرآن أنزل في (زمن خاص ووجد مصداقيته آنذاك) نظرا لتلاؤمه مع تلك الظروف والاحوال والمعطيات الانسانية..! أما الآن فالعصر قد اختلف الى حد (التناقض !) والانسان (تطور !) الى حد ما عاد يقتنع بالمقولات التي اقتنع بها حين نزول القرآن راعي الابل ووائد البنت وعابد الصنم..!

وترد عليه :

يا هذا لا نريد أن نناقشك في مسألة أن العصر قد اختلف عن ذلك العصر الى حد (التناقض) كما تزعم لان هذا محض

---

(١) في القرآن تفاصيل كثيرة عن افعال العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها ، وفي السنة النبوية التي هي المصدر الثاني للشريعة نجد تفاصيل لادق التفاصيل الواردة في القرآن لاسيما بخصوص افعال العبادات .

(٢) الآية ٤٣ سورة فاطر .

(٣) الآية ٣٠ سورة الانفال .

(٤) الآيات ١٥ ـ ١٧ سورة الطلاق .

ادعاء متهافت فالجواهر بقيت جواهر أما القشور فان اختلاف اشكالها لا يغير شيئا يستدعيك آن تتعامى عن الجواهر فتزعم آنها استحالت الى اشياء آخرى ، والانسان يبقى هو الانسان ما بقيت دعائم حياته ومنطلقات نوازعه الفطرية سواء أكل تمرات في جوف الصحراء وحيدا مع ابله أو أكل عشرة أصناف من لذيذ الطعام على أنغام الموسيقى مترفا بأرقى المجتمعات تمدنا وحضارة ٠

لا نريد آن نخوض في نقاش يوضح حقيقة الجواهر الانسانية التي كانت وستبقى كما أراد الله لهذا المخلوق أن يحيا فوق الارض ولا نريد آن نكشف حقيقة الزيف في تضخيم شأن القشور اذا تغيرت آلوانها لان هذه الحقائق تبدو واضحة لكل ذي بصيرة ينقاد لصوت العقل ولا يعميه طيش الهوى وانما نريد لفت الانظار فقط الى ما وراء هذا التساؤل :

هل ان رب العباد الذي خلقهم وآبدع تكوينهم وينفرد وحده عزوجل بتدبير كل شؤونهم منذ آوجدهم ومرورا بحياتهم الى ما بعد معادهم لا يعنيه الهدف من هذا الخلق والتدبير ٠٠؟

ستجيب بالنفي وتؤكد آنه تبارك وتعالى لا محالة قاصد الهدف من وراء ذلك ٠٠ آليس هو القائل « آفحسبتم انما خلقناكم عبثا »(٥) و« آيحسب الانسان آن يترك سدى »(٦) « وما

(٥) الآية ١١٦ سورة المؤمنون ٠
(٦) الآية ٣٦ سورة القيامة ٠

خلقت الجن والانس الا ليعبدون »(٧).

حسنا ..

اذن خلقهم « ليعبدون » .. الى هنا تتفق معي وبعد ذلك تختلف فتزعم أن أمر العبادة لم (يتدخل) الخالق في تفاصيله وانما (تركه) لتصرف البشر وفق ما يلائم المكان ويماشي الزمان ..!

ومـا دمت يا صاحبي احتكمت الى الاستشهاد ببعض آي القرآن الكريم فانا كذلك سأحسم خلافي معك بالرجوع الى الكتاب اياه وننظر أي الفريقين على الحق وأجدر بأن يتبع .

يقول الله تعالى لرسوله المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد »(٨) ويقول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا »(٩) و« ان الدين عند الله الاسلام .. ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »(١٠) « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء »(١١) « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ..

---

(٧) الآية ٥٦ سورة الذاريات .
(٨) الآية ١ سورة ابراهيم .
(٩) الآية ٤ سورة المائدة .
(١٠) الآيتان ١٩ و٨٥ سورة آل عمران .
(١١) الآية ٨٩ سورة النحل .

بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربــــه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١٢)٠

ان كتاب الله موجود بين ظهراني الناس لمهمة حددها الخالق بعينها « لتخرج الناس من الظلمات الى النـــور » ولعلك لاحظت الاطلاق في كلمة « الناس »و«الظلمات الى النور » ولعلك انتبهت آيضا الى تعبير « ربهم » الذي يختار لعباده ما يشاء ويفعل بهم ما يريد ٠

« ورضيت لكم الاسلام دينا » رضي الخالق لنــا الاســلام اطارا لعبادته « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » حسنا٠٠ وكيف تعالج الفروق بين عصر وعصر ومجتمع ومجتمع وبيئــة وبيئة وانسان وانسان ٠٠!؟

هذا هو ما تكفل به الاسلام « اليــوم آكملت لــكم دينكم » دين كامل آراد الله آن يتعبد به البشر الى آخر عهدهم فوقالارض وبحيث لا تعوق هذا الهدف الرباني (فروق في شكل القشور) لا بل ان فيه من الاعجاز ما لا يعوقه فرق جوهري ـ لو افترضنا وجوده ـ بين عصر وعصر ومجتمع ومجتمع وبيئة وبيئة وانسان وانسان ٠٠!

واذا سالتني عن هذا الاعجاز آين هو في الاسلام ٠٠!؟

اجيبك ببساطة :

---

(١٢) الآيتان ١١١ و١١٢ سورة البقرة ٠

انه مستمد من الخالق عزوجل « الذي أتقن كل شيء »(١٣) ..
أترى اذن ثمة قشور يضخم شأنها المغرضون يمكنها أن تعيق تطبيقه ..!؟

أرى أن المغرض قد لوى طبيعته عندما انساق وراء الهوى فراح بتأثير هذا الداء الوبيل يفتري منكر القول وزورا على دين الله ليصد عنه ارضاء لمآربه فهو شبيه بالناظر الى الاشياء من وراء مرآة محطمة ..!

ما ذنب الاشياء الجميلة ان كانت تبدو مشوهة من وراء زجاج مكسر ..!؟

انه داء مصطنع هذا الذي يعانيه المفترون على الله الكذب ليحولوا بين الحق والناس اذ بامكانهم أن يروا جمال الاشياء كما يبدو لذي العينين الخالص النية الحسن القصد .

بعض المسلمين يفرط في حسن الظن بهؤلاء عندما يناقش مقولاتهم ويعري ادعاءاتهم ويكشف حقيقة الزيف والافتراء والدجل ، ولكن عذر هذا البعض أن خلقا من عباد الله كثيرا يقع فريسة المفترين بل ان أكثر أتباع هؤلاء المغرضين هم أناس راحوا ضحية التلاعب بالكلام واخراجه عن مواضعه من المعاني ولعل محاولات البعض هذه تفيد كالتذكرة التي « تنفع المؤمنين »(١٤) .

---

(١٣) الآية ٨٨ سورة النمل .
(١٤) جزء من الآية ٥٥ سورة الذاريات وتمامها « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

وبغض النظر عن هذا العذر الوجيه أتدري لماذا يعتبر ذلك التصدي افراطا في حسن الظن ٠٠؟

يكون كذلك اذا قارناه مع الاسلوب القرآني ، اذ أن الله تعالى عندمايتصدى لاباطيل المبطلين في كتابه يضعهم بسرعة أمام الاهداف المبيتة في طوآياهم ذلك لانه عزوجل خالقهم ويعرف جيدا حقيقة ما يدور في دخيلة النفس ولذلك نرى أن الله تعالى يدين ذوي الغرض والافتراء قبل أن يتعرض لذكر سيئاتهم وحتى عندما يسوق هذه السيئات بعد الادانة فانها لتبصير عباده المؤمنين بحقائق المبطلين والتواء آساليبهم(١٥).

وبشكل هام فان هناك طائفة من ذوي الغرض البعيد عن جادة الحق لا يجدي معهم الا التقريع بالادانة وعدم الدخول معهم في النقاش العقيم لان أحدهم كمن لا يريد أن يزيح العدسة المحطمة من وراء ناظريه لئلاتبدو له الاشياء على حقيقتها فتفوت

(١٥) لاحظ هذه الآيات « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين» الآية ٨ سورة البقرة ٠٠ ادانهم الله تعالى بعدم الايمان اولا قبل ان يعرض مقدمات الحكم ثم راح سبحانه يتحدث عن أوضاعهم المقتضية لادانتهم « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون ٠٠ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ٠٠ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » الآيات ٩ و١٤ و١٥ سورة البقرة ، وانظر « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام » الآية ٢٠٤ سورة البقرة ، لعلك تلاحظ ان « يشهد الله على ما في قلبه» وهو حكم الله على هذا الصنف من الناس بانهم منافقون جاء ايضا قبل ان يذكر اوضاعهم المستوجبة لهذا الحكم « واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » الآيتان ٢٠٥ و٢٠٦ سورة البقرة .

عليه المآرب الصغيرة الشأن التي يتشبث بنيلها فهو قاصد لما يفعل وهذا الصنف في الغالب هو الذي يمسك بيده زمام القطيع الاعمى .

أما الطائفة الاخرى من هؤلاء فهي التي نحتاج الى الاعذار أمام الله تجاهها بابانة المقاصد الخبيثة وفضح الاساليب الملتوية وتعرية الباطل بتجريده من الاسماء المستعارة .

وعندما نتوقف عند الآية « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .. نتساءل :

ما ظنك بالله تعالى عندما يحاسب عباده يوم القيامة فلا يدع صغيرة ولا كبيرة الا سال عنها حتى يقول المجرمون « يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا »(١٦) .. هل ان الله وهو أحكم الحاكمين سيؤاخذهم دون سابق بيان للطريق الذي اختطه لهم ودون أن يجعله أقوم الطرق يكون فيه ليل السالكين كنهارهم ..!؟

حاشاه ، فهو عندما قال في كتابه « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها » قال أيضا « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ..!

وبالفعل ، لقد عاش بنو الانسان قرونا عديدة خلت في

---

(١٦) الآية ٤٩ سورة الكهف .

ظل هذا المنهج الرباني كانوا يجدون فيه «تبيانا لكل شيء» وهم يسوسون به المجتمع الانساني فأغنوا الحياة وأشادوا حضارة ونشروا العدل واستطاع الانسان في هذا الظل الوارف أن يأخذ مداه الايجابي الكريم ابدآعا وانطلاق قابليات الى آبعد ما يكون عليه الحال بحدود الواقع البشري المعاش آنذاك عصرا وبيئة وانسانا ..!

ان هذ، المنهج بمقدوره اذا استمسك به الانسان أن يتفاعل مع اي مستوى من المعطيات البشرية عصرا وبيئة وانسانا ويعطي مردودا يوازي مقدار الاستمساك به ويوازي مقدار معطيات الواقع البشري بما لا يمكن أن يحققه أي منهج آخر على الاطلاق، والتاريخ هو الشاهد والتجربة هي الدليل والعطاء هو الحكم ..!

أما المؤمن فقلبه يمتلىء يقينا بالقرآن هذا الكتاب الذي فيه « تبيانا لكل شيء » شريعة لا يضيع فيها الانسان وسط تساؤلات لا يجد لها اجابات مقنعة بل يحوز الهدى من كل أطرافه ويبلغ بها أعلى المراتب في الدنيا والآخرة ، سواء عاش الانسان راعي ابل أو كان مرتادا للكواكب أو كائنا ما يكون شأنه لاحقا.

وتأمل عظمة هذا المنهج الرباني المصمم لاستيعاب البشر كلهم من راعي الابل الى مرتاد الكواكب ..!

هذا الاعجاز أشبه باشتراك البشر كلهم في قطعة الخبز التي تسد رمق الجميع ..!

ان خالق الابدان مثلما أوجد لهـــا أصناف الطعام التي تلائمها أوجد للعقول جميعها المنهج الذي يصلح لها ٠٠! ومثلما أن أبداننا لا تستطيع الأستغناء عن أصناف الطعام الملائمة لهــا أو استبدالها بأشياء أخرى كالتراب والحجر مثلاً كذلك لاتستطيع أن تستغني عن منهج الله باعتماد مبادىء أرضية ٠٠!

الابدان تمــوت بتناول التراب والحجر بــدلا من الطعام المعروف وكذلك الانسان يموت لا محالة ان هــو نحى منهج الله جانبا وتمسك بمبدأ أرضي وضيع ولا يغرنك ان هو دب عــلى رجلين وعاش حياة الاكل والشرب والنوم (٠٠ الخ) فهو ميت في قيمه ميت في معطيات حياته ٠٠ وانه لمــوت يفزع العقلاء أشد الفزع اذا قارنوا بين وضع الانسان في ظل منهج الله ووضعه في ظل مبادىء المخلوقين ٠٠!

من الخزي حقا أن يدعي مغرض من عبيد الهوى أن يراعه دبج للبشر نظاما هو أصلح لزمانهم وأليق بمجتمعهم مما أنزله رب العباد جل وعلا خالق الدنيا وخالق الارض وخالق الانسان وخالق كل ما في الوجود على أتم وأكمل وأصلح وأجمل ما يكون الخلق فمن يا ترى يكون مخلوق صغير الشأن محتاج لسواه ازاء ربنا العلي القدير ٠٠!؟

الا ما أخزى المغرضين بعبادة الهوى ٠٠!

وما أحلمك يا حليم يا خالق الحلم ورب الحلماء ٠٠!

منهج الكفر شهواني

تأليـــه الهـوى

آهذا يحصل ..!؟

وكيف يسوغ ..!؟

انه يحصل فعلا ..!

القرآن ينص عـلى أن البعض يتعاطاه ، والواقع البشري يبرهن على أن هذا الداء الوبيل كان موجوداً طوال حقب التاريخ في مختلف الاصقاع وشتى المجتمعات التي اختـارت لنفسهـا العيش وفق مناهج وضعية اخترعتها لتكون بديلا عن منهج الله،

وهذا يعني ان تاليه الهوى لا يختص بحقبة وانما وجوده مرتبط بحالة ابتعاد الانسان عن المنهج الرباني ·

يقول القرآن :

« ارايت من اتخذ الهه هواه »(١) ··!؟

هذا ما يحصل حين تنطلق النفس غير عابئة بكل الموازين المعلومة والمقاييس الثابتة والمعايير المضبوطة وتنقاد لشهواتها وترضخ لهواها فلا تنزل على حكم موزون ولا يحجزها حد ولا يزجرها منطق عندما يطغى هواها الذي اتخذت منه الاها يطاع ويعبد ·

وما احقر هذا الانسان اذ يحكم هواه في كل شأنه وينطلق وراء شهواته غير مبال بحجة ولا ملتفت الى حقيقة ··! أهذا بمرتبة الانعام التي لا تسمع ولا تعقل ··!؟

لا ·· انه احط منها « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا »(٢) :

اكثرهم ـ اي باستثناء قلة تميل الى جانب الهدى ـ يتخذون الهوى الاها يعبد متجاهلين دلائل الهداية وبراهين الحق التي تلهب الوعي وتؤجج المشاعر ·· فالاكثرية اذن اضل من الانعام لانها عطلت الادراك لديها وهربت من مواقف التدبر ··!

(١) الآية ٤٣ سورة الفرقان ·
(٢) الآية ٤٤ سورة الفرقان ·

وشواهد هذا الحال المزري ليست بعيدة على من يريد الوقوف عليها ·· وللتمثيل دعنا نستعرض ملامح لعينات ملموسة :

شخص تدعوه الى أن يكوّن صادقا مع نفسه فيختار المنهج المناسب لها ألا وهو منهج آلله لانه الحق وما بعده الضلال ثم تضعه وجها لوجه أمام التشريع الرباني المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتؤشر له البون الشاسع بالمقارنة مع التشريع البشري فيسلم لك بصدق ما تقول ولكنه يدعي أنه لا يطيق احتمال البعد عن (فرص المتعة) التي تتوفر تحت مظلة التشريع البشري ويحرمها التشريع الرباني كل التحريم ·

قد يخبرك بهذا (التبرير) صراحة بأسلوب الاحتجاج الهادىء أو الوقح ، وقد يخبرك بالتواء ومخادعة وما أكثر أساليب الالتواء والمخادعة ، وقد تحس برغبته في استمراء الباطل واستبعاد الحق تلميحا وهو ينفلت لواذا الى اجابة دواعي هواه والانكباب على شهواته ··!

ماذا تسمي من تراه يستيقن حق الله أمامك ويدين باطل البشر ولكنه ينزل أخيرا عند مقتضيات هواه المخالف لمنهج الحق ويمعن في المخالفة عزوفا عن الطريق الذي زكاه هو واسترسالا في نهج الباطل الذي استسخفه هو ··!؟

انه اتخاذ الهوى الاها ··!

لان طاعة الانسان لا يستأثر بها دون خالقه الا مؤله ٠٠!

ان العقول البشرية مهما أوتيت من الحنكة وعمق النظر والخبرة في الافق النفسي للانسان لا تستطيع أن تصل الى تشخيص كهذا الذي حدده القرآن بالآية « أرايت من اتخذ الهه هواه » ٠٠!

ذلك لان الله هو خالق النفس ويعرف وحده تبارك وتعالى حقيقة أوضاعها ولا يخفى عليه الصدق والكذب في مواقفها ، يعرف تماما عالم الوعي وما يختلج فيه ويطلع جيدا على دقائق ما يسمى عالم اللاوعي وما يتمخض عنه ٠٠!

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٣) ٠٠!؟

وهذا الحال الذي يصبح فيه الانسان عبدا لهواه رغم كل اليقينيات التي تؤكد أنه باطل مدان وتدعوه الى حق الله اتباعا للطريق الانساني المستقيم يعتبر أعتى الاحوال التي يرهن البعض نفسه في زواياه ، حال أضيق من سم الخياط وجوه أخنق من قارورة الزيت المحكمة السداد يزج الانسان نفسه زجا بين جدرانه ٠٠ لماذا ؟ التماسا لـ (متع) آنية تزول بسرعة ، تذهب (نشوتها) وتبقى معاناة مرارتها ٠٠!

أهذا ثمن يدعو الانسان الذي شرفه الخالق عزوجل بالعقل

---

(٣) الآية ١٤ سورة الملك ٠

والعلم والاختيار الى أن يبتعد بوقاحة أو يهرب باستخفاء من نعمة الحق التي ساقها الله الى باب داره كما ساق اليه سائر النعم براحة بال مندفعا بحماس كاذب الى ساحة الباطل مجيبا داعي هواه ذليلا مع أتعس معبود ..!؟

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .. ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون »(٤).

انسان تأتيه آيات الله ويحاط بأجزل النعم ، ورزق العلم وأعطى فرص الهدى والعدول عن الانحطاط والضلال ، ولكنه ينسلخ من ذلك كله انسلاخا وهو أشبه بمن ينسلخ عن الجلد المحيط بجسمه ، وتسأله الى أين تريد الفرار بنفسك أيها الممسوخ ..؟ فتعلم أنه يولي وجهه نحو اتباع الهوى مفضلا مسخ بشريته والتصاقها بالطين والانقياد للشيطان معزولا عن كل حمى بل معرضا نفسه للهلاك الرخيص ، كل هذا عله يهرب .. ممن ..؟

من الارتفاع الى الافق الاعلى ..!

---

(٤) الآيات ١٧٤ ـ ١٧٦ سورة الاعراف .

فطرته والدلائل العلمية وهواتف الهدى تدعوه لان يرتفع الى المقام العلوي ولكنه يتثاقل لاجابة مطالب الهوى التافهة ٠٠! مطالب آنية وهو يعلم أنها رخيصة فيمكنها من مقتله ٠٠!

ما هذا ٠٠!؟

ألا « ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وانفسهم كانـوا يظلمون » ٠٠!

وأنت اذا تعمقت في آغوار هذا الطراز من البشر ورحت تحلل تصرفاتهم لوجدت أنهم فضلا عن ادانتهم في دخيلة أنفسهم لما يتعاطونه من باطل ونكوصهم عن الحق لا يريدون أن يظهروا امام الناس مداني السلوك وانما هم يحرصون على الظهور بسمة جيدي السلوك الذين فكروا بطاقـــة فوق مستوى البشر حتى توصلوا الى طريقتهم الحياتية (المثلى) ٠٠!

ولولا الظهور بأنهم (جيدو السلوك) من خـلال المقولات الجوفاء والتبريرات المنطوية على آكذب جوهر لما تكاثر حولهـم الاتباع اللاهثون وراء كل ناعق المطلوبون تحقيقا لـ (حشر مع الناس عيد) فالاتباع المناصرون كلما تكاثر عددهم يتاح قـدر من (المتع) أكبر ويغدو العيش (لذيذا بلا قهر ولا وصاية ولا قمع دموي) ٠٠!

وما دام المناصرون كثر والصولجان معهم اذن (لا حرج) من قهر المناوئين والوصاية عليهم وممارسة القمع الدموي معهم

تحسبا لطوارىء المستقبل واحتياطا ..!

وتتم هذه الاعمال الشنيعة كلها تحت واجهات عجيبة يبلغ بها الدجل في أحيان كثيرة حد الادعاء بأن ما يفعله (عبيدالهوى)

انما هو تطبيق لـ (روح المبادىء السماوية) وتخليص لهذه المبادىء من (التشويه) الذي يلحقه بها (المتطرفون) أي الذين تمردوا على هواهم استمساكا بنهج الله ..!

أرأيت الدجل الى أي درك ينحط ..!؟

لاجل ماذا ..؟

لاجل الركض وراء رغبات الهوى المعبود بدلا من الله تعالى ..!

وما أتحدث عنه ليس هو وليد العصر الحالي .. لا .. انه تقاليد قديمة الجذور توارثها عبيد الهوى جيلا عن جيل وقد اغناها اللاحق بعدما أمسك الخيط من نهاية السابق وراح يوالي النسج على هذا المنوال ..!

القرآن قد سجل هذا الامر لاهميته في مجال التبليغ ومواجهة أعداء الحق وآرشادا للمبلغين حيث يقول تعالى :

« وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه اني أخاف

(٥) الآية ٢٧ سورة غافر .

أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الارض الفساد »(٥)

فرعون الطاغية المتجبر ما به ٠٠؟

(يخاف) على قومه تبديل دينهم ٠٠!

فرعون العريق بالفساد (يخاف) أن يظهـــر في الارض الفساد ٠٠!

فرعون الذي ضجت الدنيا من طغيانه وكاد تراب الارض يفسد من نتن فساده وافساده يبدي تلك المخاوف وأمام من ٠٠؟

أمام قومه الذين ضاقوا ذرعا بسيئاته ٠٠!

ويتشكى ممن ٠٠؟

ويتهم من ٠٠؟

يتشكى من نبي أرسله رب العباد بالبينات والهدى رحمـة لانقاذ المستضعفين واعادة الحقوق الى اصحابها وتخليصهم مـن ظلم فادح لا نظير له ٠٠!

ويتهم رسول الله بعد سطوع بيناته بماذا ٠٠؟

بتبديل دين قومه ونشر الفساد واشاعته في الارض ٠٠!

الدجل اذن ليس وليد العصر الحالي لان جذوره أعمق من

التاريخ المنظور ..!

منطق واحد نراه يتكرر كلما جابه الحق الباطل وكلما تصدى الايمان للكفر وكلما وقف الصلاح في طريق الطغيان .. انها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داع الى الحق ينشد الاصلاح، والكلمة اياها هي مقـولة الباطل الكالح يرميها في وجـه الحق الوضاء ، وهي ذاتها أداة الخداع الخبيث لبلبلة الخواطر وتأجيج مشاعر الكره أمام كل موجة للايمان تتحرك وترتفع ..!

« قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد »(٦) يزعم أنـه موهوب فيما يراه اذ لا يتجلى الصواب الا في عقليته وبما أنه كما يدعي حريص على أن يقود بني قومـه الى الصواب فما عليهم الا أن يصغـوا الى رأيه ويتلقوا مقولاته بلا جدال ..!

والطغاة على مدار التاريخ البشري هل كانوا يقصدون الا (الخـير) لاقوامهم ويلتمسون لهـم (الرشـد) ويدلونهم على (الصواب) ..!؟

يا للمهزلة ..!

اننا لم نسمع ولم نر طاغية تحدث مع قومه الا من هذا الافق الفرعوني ولذلك كان أي طاغية ـ وسيبقى شأن الطغاة هكذا الى يوم القيامة ـ لا يسمح أن يظن قومه أنه قد يخطىء ، بل لا يجوز

---

(٦) الآية ٣٦ سورة غافر .

لهم آن يروا مع رأي الطاغية رآيا حتى لو كـان راجحـا ويحظى بالاجماع ٠٠ فبماذا يتميز الطاغية اذن ٠٠!؟

ولم كان طاغية ٠٠!؟

ومن هنا يجيز لنفسه تكميم الافواه حتى الموت لان اصحابها (لا يعرفون مصلحة بلدهم جيدا) ٠٠!

ولقد سمعت أحدهم مرة وهو يعلن على الملأ آنه لا يبالي ان اهلك ثلثي شعبه من آجل آن يبقى الثلث الاخير (نقيا لا تشوبـه افكار غريبة) آي كمـا قال فرعون « ومـا آهديكم الا سبيـل الرشاد » ٠٠ فـلا تبالوا بالثمن ، بـل ليرخص الغـالي ويهـون النفيس ٠٠!

ان الانقياد للهوى بذرة تتضخم بمرور الزمن وتنتشر فروعها في كل اتجاه حتى تمتد الى آبعد جزء من حياة الانسان ولا غرابة في آن يصل التمادي بمؤله الهوى حد آن يدعي الالوهية واستعباد الناس حتى لو اقتضى الامر آن تصادر كل حرية البشر وتمرغ كرامتهم بالوحل وحتى لو سالت الدماء آنهارا ٠٠!

لا تعجب ٠٠!

الم يفعل فرعون مثل هذا ٠٠!؟

« وقال فرعون يا آيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري »(٧) ٠

---

(٧) الآية ٣٨ سورة القصص ٠

« ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين »(٨).

وهكذا الطغاة من بعده تصب مسالكهم جميعا في اتجاه واحد.

اتباع الهوى باب اذا فتح على مصراعيه اندفع منه الويل والثبور سواء لمن اتخذ الهوى الاها أو الذين يطالهم منه الشر والبلاء ولذلك وجدنا الاسلام يوصد هذا الباب باحكام.

يقول تعالى :

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »(٩).

« فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين »(١٠).

« وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم »(١١).

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة

---

(٨) الآية ٤ سورة القصص.
(٩) الآية ٢٦ سورة ص.
(١٠) الآية ٥٠ سورة القصص.
(١١) الآية ١١٩ سورة الانعام.

هي المأوى »(١٢) .

وبخضوع هوى الانسان لمنهج خالق الانسان الـذي « يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور »(١٣) والقائل « ولقــد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس بـه نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد »(١٤) يكون الهوى منضبطا ، أمـا خـارج هذا المنهج فأي محاولة لتحقيق انضباط الهوى انما هــي عبث وخــداع للنفس وظلم لها ..!

هكذا يقرر الخالق .. « قل أأنتم أعلم أم الله »(١٥) ..!؟

---

(١٢) الآية ٤١ سورة النازعات .
(١٣) الآية ١٩ سورة غافر .
(١٤) الآية ١٦ سورة ق .
(١٥) الآية ١٤٠ سورة البقرة .

الوعي بلا التزام

كيف سيعامل في ميزان الآخرة ؟

لا شك أن أكثرنا يصادفه عديدون يقف الواحد منهم على الحق وقفة البصير ويسلم بانه الحق وحده وما عداه الباطل ، ولكنه يدير رأسه بعد هنيهة ابتعادا عن هذا الحق (المشهود له) ومعطيا عنانه لذلك الباطل (الصريح المدان) ..!

وتتم العملية تحت غطاء تبريري سخيف لان صاحب التبرير اياه لا يقتنع في أعماق نفسه بصدق التبرير وانما همه أن يقول أي مقولة وان كانت أوهى من نسيج العنكبوت ما دامت تطلق سراحه ـ هكذا يعتقد ـ من (قبضة) أعباء الحق وتذهب به

بعيدا الى (نشوة) الباطل ..!

ولزيادة الايضاح دعنا نسترسل ..

اما صادفك شخص تدعوه الى الحق بعد أن توضح له كل غامض وتشفع كلامك بالآدلة والبراهين وتجلي الصورة من الغبار والضباب والغبش حتى يبدو هذا الحق أمام عينيه أسطع من شمس الظهيرة فلا يجد بدا من التسليم بأن ما قلته هو الحق المبين وليس بالوسع نكرانه ، ثم يتسلل لواذا الى باطله تعاطيا له واستمساكا به على أشد ما يكون ، وقبل أن تبدي دهشتك من سوء فعله اذا هو قد جهز من التبرير آسخفه وبلا حياء يرميه في وجهك - أكرمك الله - لتحمله على أي محمل تشاء ..!؟

هذا يحصل كثيرا مع كل الذين آمرهم الله عزوجل أن يقوموا بمسؤولية تبليغ الحق وايصاله الى العباد ، وأحيانا يجد بعضهم المرارة تملأ قلبه من وقع السلوك المشين لانه جاء عكس مسعاه الحميد ، وقد يتصور بعض هؤلاء الداعين الى الحق أن عملهم يذهب مدى ودون جدوى ..!

القيام بدعوة الآخرين الى حق الله آمر مطلوب الاداء من المسلم المكلف التزاما بقوله تعالى « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني »(١) أما معاناة القيام بهذا الواجب العظيم فشيء متوقع ولابد من احتماله وترويض أنفسنا عليه ، أنظر « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر

---

(١) الآية ١٠٨ سورة يوسف .

على ما أصابك »(٢) أي أنه لابد أن يصيبك ما تكره بفعل أداء تلك المهام ، فكيف ينبغي لك أن تتصرف ٠٠؟

المطلوب منك هو أن تصبر اذا اصابك هذا المكروه ٠٠!

أما أن يذهب وقع المرارة بالبعض الى تصور أن العمل غير ذي فائدة فأمر لا يقبل ، لان تحقق الفائدة شان لم يشرط مع التكليف بأداء العمل ٠٠ أنت اذا دعوت فلانا الى الحق « بالحكمة والموعظة الحسنة »(٣) ولم يستفد فهذا شيء خارج واجبك وانه أمر يتولى الله تعالى تصريفه سواء في الدنيا حيث ميدان العمل ولهذا أن يهتدي ولذاك أن يضل ، أو في الآخرة حيث الجزاء للجميع للداعي بتكريم طاعته عندما قام بواجب دعوة الناس الى الحق وللمهتدي بجنيه ثمار الهداية عندما نزل على مقتضيات الحق وعمل بها ، وللضال بالعقاب لانه أصر على رفض الحق واستمسك بأحبولة الباطل ولم يلتفت الى نصائح الهداة ٠٠!

ولندخل الآن في صلب الموضوع ٠

المتسللون لواذا من ساحة التذكير بالحق الى معمعة الباطل ليسوا كلهم سواء بل هم فئتان فيما اعلم ، اولاهما فئة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب

---

(٢) الآية ١٧ سورة لقمان ٠

(٣) الآية ١٢٥ سورة النحل وتمامها هو « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين » ٠

عظيم ٠٠ صم بكم عمي فهم لا يرجعون »(٤)ولا شأن لنا بمصير هؤلاء لانهم اختاروا طريقهم عن سبق اصرار ، أما ثاني الفئتين وهي المعنية بتكريس الموضوع لها فتتميز بعدم الاصرار والصلف وهي أشبه بالقشة التي يجرفها السيل القوي ٠

ان الواحد من الفئة الثانية اذا حدثته عن الحق تراه يصغي اليك ويسلم بحذافير ما تقوله ويلين ويكاد يقول خذوني اليه ولكنه مغلوب أمام باطله فهو ممن يتقاذفه التيار الجارف ذات اليمين وذات الشمال ، ولا أريد أن أجد عذرا لهؤلاء ولكني أقول انهم ضعاف أمام سطوة الباطل وكأنهم لا يتقبلون الحق الا مع كبكبة تقوم بين يديه تحمي الاتباع وترهب الاعداء .

انهم باختصار لا عذر لهم ولا يقبل منهم أي تبرير ٠

ليس أمر الحق بيدي لاجود على هذا بالقبول وأقذف فيوجه ذاك الرفض وانما الله جل جلاله وهو صاحب الحق يعلن ذلك مذكرا المعنيين به في الدنيا قبل يوم الحساب « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنافي أصحاب السعير »(٥)وهذا التذكير الجليل القدر من رحمة الرحمان بعباده عندما أورده تقديما بين يدي العمل ٠

وانه تهديد عظيم ولكنه في محله ٠٠ فيا هؤلاء يا من باعترافكم تقولون انكم من ذوي السمع والعقل في الدنيا لم لم

(٤) الآيتان ٧ و١٨ سورة البقرة ٠
(٥) الآية ١٠ سورة الملك ٠

تسمعوا اذن ۰۰!؟ ولم لم تعقلوا ۰۰!؟ أو كان ما تناولتموه من ثمن ـ وهو بخس بالتأكيد ـ يضغط عليكم لتتحولوا الى موجة الضلال ابتعادا عن الحق أكثر من ضغط المصير الرهيب الـذي طالما حذرتم منه ۰۰!؟

ان هذا التقريع لا يراد التعجيل بتوجيهه الآن الى مستحقيه في الآخرة ، ولكنه يساق الى المعنيين به تذكيرا وفي العمر فسحة وفي ميدان العمل متسع وفي الاستطاعة وضع القدم على الصراط المستقيم ۰

يا ذوي السمع والعقل متى تنتفعون من نعمة الوعي ان لم تنتفعوا في حياتكم هذه ۰۰!؟ أفي السعير حيث لا ينفع سمع ولا عقل ولا يسوغ تبرير ولا يقبل اعتراف ولا يؤخذ اعتذار ۰۰!؟

هـل ان الخالق كـان يمـزح حاشاه عندما أوجدكم فـي الحياة ۰۰!؟ وهل تظنون أنه سبحانه سيتصرف معكم على هـذا المنـوال فيهب لاي منكم مقامـا في رضوانه الى جـانب الرسل والانبياء والصالحين ـ أكرم الناس عند الله ـ الذين ذاقوا من العذاب والآلام والمعاناة طوال حياتهم ذودا عن الحق ونشرا لـه وحربا على الباطل ودحضا له ۰۰!؟

تعالى الله عن ذلك ۰۰!

فما تصوركم هذا الا تزيين شيطاني وتغرير وضلال ۰۰!

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ٠٠ اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ٠٠ تكاد تميز من الغيظ كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ٠٠ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا في ظلال كبير ٠٠ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ٠٠ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير »(٦).

وقد يظن البعض أن المقصود بقولهم « لو كنا نسمع أو نعقل » هو انهم كانوا عديمي السمع والعقل وهذا غير صحيح لان عديم الوعي لا يؤاخذ في شرع الله وانما يؤاخذ المرء بمقدار ما يمتلك من الوعي(٧) ٠٠ فالمقصود من قولهم ذاك هو الندم على عدم الاستفادة من السمع والعقل وقد كان بمتناولهم الاستفادة منهما في التزام الحق واجتناب الباطل.

ولات ساعة مندم ٠٠!

لان الذي يسمع ويعقل باتزان وموضوعية وحرص على التماس الصواب بعيدا عن هيمنة الهوى لا يورد نفسه ذلك المورد الوخيم بتناسي ربه ابتعادا عن تبعات منهجه لاجل الانغماس

---

(٦) الآيات ٦ ـ ١١ سورة الملك.

(٧) صحة العقل وامكان التمييز هما مناط التكليف في التشريع الاسلامي، وفي الحديث النبوي « رفع القلم عن ثلاثة : النائم حتى يستيقظ والصبي حتى يحتلم والمجنون حتى يعقل » ينظر (الوجيز في اصول الفقه) للدكتور عبدالكريم زيدان ـ موضوع المحكوم عليه.

في زبد المتاع الفاني وكأنه دائم ولا حساب بعده وليس هنالك حسيب ٠٠!

الحياة الدنيا تبدو للعاضين عليهـا بالنواجذ كأنها غاية الوجود ونهاية المطاف فلا تكاد نفوسهم تتجاوز ظاهر البريق الدنيوي المعاش ولا تلقي بالا الى المصير الاخروي المقبل لا محالة وهي مستغرقة في حياتهـا كالمحبوس في قفص اسمه الارض ويتوهم أنه طليق ٠٠!

وتظل هذه النفوس تنحط وتنتكس في كل يوم تعيشه بلوغا الى صورة ليس هناك ما يشابهها في البشاعة ٠٠ فأي مكان في الوجود كله تنتهي اليه ٠٠!؟ ليس ثمة مصير لها أنسب من النار بعد أن لم تعد ترتبط بمعنى ولا حق ولا كرامة ٠٠!

ان التأمل في قوله تعالى « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » يجعل المؤمن يرتجف رهبة من هول هذا التقرير اذ أن الحساب سيمر على كل حصيلة السمع والعقل ماذا كانت في الحياة الدنيا وكيف جرى التصرف بنعمة الوعي ٠٠!؟

اللهم عونك ٠٠!

ومن هذا الافق نقرأ قوله تعالى «ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »(٨) انها أمانات لم يخولنا الخالق اياها دون أهداف يقصدها حاشاه ، بل انها نعم عظيمة تعجز

---

(٨) الاية ٣٦ سورة الاسراء ٠

البشرية كلها أن تجد واحدة منها على قارعة الطريق ..!

بل تعجز البشرية كلها لو كانت على صعيد رجل واحد تحوزته كل ما اوتيت وتؤتى لاحقا من آرقى العلوم والمعارف والابداعات أن تصنع شيئا يشبه أصغر واحدة منها ..!

واذا كانت الواحدة من هذه النعم على هذا القدر من النفاسة ترى كيف سيسأل عنها الخالق البارىء تبارك شانه ..!؟ انه بلا شك سيكون سؤالا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا استقصاها ..!

حساب يالهوله عندما يكون الله المنتقم الجبار هو الحسيب ، وعندما تكون الودائع المسؤول عنها الانسان هى بذلك الوزن الثقيل ، وعندما يكون الشهود أعضاء الجسم وبالتالي اعتراف المذنبين حيث لا ينفع اعتراف ولا تفيد معذرة « الوزن يومئذ الحق »(٩)« وقد خاب من حمل ظلما »(١٠).

فيا هؤلاء لو أن أحدكم رأى رجلا فقير ذات اليد يركل بقدميه جواهر لا تعود له ولا يمكن تقديرها بثمن لنفاستها وهو يعبث بها مع الصبيان امام اصحابها الذين حازوها بعرق جبينهم كما يعبث الاطفال بالكرة وسط الطريق أما اعتقد أن في عقل هذا العابث خللا لا محالة ..!؟ اذن كيف تكون دهشته لو علم أن

---

(٩) الآية ٨ سورة الاعراف .

(١٠) الآية ١١١ سورة طه .

هـذا العابث انما هـو عاقـل مشهود لـه بالعلم والتخصص والالمعية ··!؟

عند ذلك سيظنه ضليعا في الجريمة وعريقا في السرقـة وسيستقدم الشرطة فورا ويطلب منها ايقاف هذا العبث وانزال آشد العقاب بذلك العابث الكبير لانه كان يعلم آي جرم يرتكب وآي سخرية يؤديها ··!

وهكذا هي صورة حال ثاني الفئتين ان لم تكن منطوية على جرم آشد وعاقبة افدح ، ولذلك يقـال لهـؤلاء في جهنم بعـد اعترافهم الذليل بجرائمهم « فسحقا لاصحاب السعير » ·

اللهم ··

شدا لعزيمة صادقي النية من عبادك ··!

وعونا على ما تحبه من صالح الاعمال ··!

وابلاغا الى ما ترضاه من نعم المصير ··!

بصـيرة العقـل وطيش الهـوى

الانسان العالم الخبير بعظمة الخلق والابداع والتدبـير لا ينظر الى المخلوقات أو الاشياء من حوله نظر الـذي يبهره الـكم ويطير لبـه الحجم وانما ينظـر الى الاعجاز في الخلق والابداع والتدبير دون التقيد بحجم حيث يستوي عنده من ناحية الاعجاز قلامة الظفر عندما يتأمل في كيفية خلقهـا وطريقة ابداعها وضخامة تدبيرها يستوي اعجازها مع الاعجاز الماثل في الارض والكواكب والاجرام والمجرات بل والسماوات ..!

لا تعجب ..!

دعني أسألك :

هل ثمة خالق لقلامة الظفر سوى الله ..!؟

وهل ثمة خالق للسماوات سوى الله ..!؟

لا بالقطع ..!

وما دام الله تبارك وتعالى ينفرد وحده بخلق كل شيء من أضأل المخلوقات الى أعظم المخلوقات عند ذلك ينبغي أن نتوقف متاملين ازاء كل خلق مما صغر منه أو كبر ..!

المؤمن الذي يملأ اليقين قلبه استمدادا من عظمة الخالق فيما خلق يتفكر في كل شيء ، ويعطيه ما يستحقه من القيمة فمثلما يستدعيه العقل والحواس أن يتأمل في السماء وكيفية بنائها وتدبير شؤون محتوياتها من المخلوقات الهائلة التكوين بنظام دقيق معقد ومتشابك ومنضبط ومحكم يستدعيه العقل والحواس أيضا أن يتأمل بعوضة ..!

نعم .. انها شيء هين عند من لا يستخدم عقله ولا يقيم وزنا للعلوم بل يفتقر الى احترام البديهيات العلمية التي كان قد درسها هو بامعان وتقبلها بعد معاناة من القراءة والتدريب ..!

البعوضة شيء هين عند مثل هذا المرء .. أما المؤمن فانه يتفكر في هذا المخلوق الصغير متسائلاً كشأن العلماء : كيف

صمم هـذا التصميم ٠٠!؟ وأي فوائد استدعت موقعه في حياتنا ٠٠!؟ وأي قوانين عظيمة تلك التي تحكم وجوده ضمن مالا نحصيه من المخلوقات ٠٠!؟

« ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا »(١) ٠

الله عزوجل لا يستحي أن يضرب مثلا ببعوضة لانه يخاطب عادة ذوي العقول الذين يحترمون مكانة العلم ويكبرون شأن الورقة اليابسة من حيث خلقها ، كيف اذن بتأملهم بعوضة تطير بينهم وتؤدي وظائف حياتية لا محالة ٠٠!؟

ولذلك ليس هناك ما يدعو الى الحياء في أن يضرب الله مثلا أي مخلوق من مخلوقاته ٠٠ ان الحياء من هذا المثل البسيط يعني مجاراة ذوي العقول التي لا يفقهون بها الذين عطلوا هم الاستفادة مما أتاح الخالق لهم من نعمة جلى ، ولهذا تنزه ربنا عن مجاراة هؤلاء ٠

ومن الطبيعي أن يتساءل ذوو العقول المعطلة بقولهم «ماذا أراد الله بهذا مثلا » فالذي لا يثير طاقات التفكير فيه وامكانات التأمل لديه كل عظائم الخلق من بشر وأرض وسماء وسائرمافي الكون المنظور والمحسوس كيف يمكن لـ (بعوضة !) أن تلفت أنظاره الى خالق الكون سبحانه وتعالى ٠٠!؟

---

(١) الآية ٢٦ سورة البقرة ٠

فتراه يسخر ويستهزىء مما يضرب له من مثل يراه (عديم الاهمية او ضئيل الشأن!) وما درى المسكين انه يسخر من بلادته ويستهزىء بالحال الذي اوصل اليه عقله ٠٠!

« الله يستهزىء بهم »(٢) ٠٠!

ارى ان في العقل السوي بصيرة تنير الطريق امام المرء ان انطفأت غدا العقل كالحجارة وراح صاحبه يتخبط في عماية وهو يحسب انه اشد عقلا من العقلاء ٠٠!

كيف تنطفىء البصيرة ٠٠؟

الانسان هو الذي يخمد جذوتها ٠٠!

فالنزوة او اي فعلة خاطئة يأتيها الانسان عن تعمد رغم تعارضها مع منطق العقل وحكمه انما تعني الغاء لدور العقل وبالتالي ونتيجة التكرار يخبو سراج الهداية في هذا الجهاز الذي شرف الله الانسان به ٠٠!

وهكذا يتحول قياد الانسان الى الاهواء والشهوات التي لا تنضبط بعد ان يفك عقالها ويغدو العقل غرفة سوداء « صم بكم عمي فهم لا يعقلون »(٣)٠

صنف من الناس هذا شأنهم ، اي الالغاء الكامل لاحكام

---

(٢) الآية ١٥ سورة البقرة وبقيتها « ويمدهم في طغيانهم يعمهون »٠

(٣) الآية ١٧١ سورة البقرة وهي بتمامها « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون »٠

العقل وبالتالي اسقاط دوره ٠٠ اذن كيف يفكرون ٠٠؟!

انهم يفكرون بتأثير الاهواء والشهوات المستحكمة في نفوسهم ٠٠! فما هو حق عندهم يعني أنه مزكى من أهوائهم ولا يتعارض مع شهواتهم ٠٠! وما هو باطل عندهم يعني أنه يخالف آهواءهم ويحول دون شهواتهم ٠٠!

ان احكام العقل آشبه بأحكام الرياضيات (واحد + واحد = اثنين) ولكن عندما تتدخل الاهواء والشهوات وتمسك بالزمام تكون النتيجة حسب ارادة المزاج (واحد + واحد = واحدا أو اثنين او مئة أو الفا ٠٠ الخ) أي ان الحكم عندما يصدر من دائرة التأثير المزاجية في الانسان ـ الهوى ـ يكون غير عابىء بخطورة المغالطات بل يزج كل طاقاته في بهرج القول وتزيين الكلام لالباس المغالطة ثياب (الحق الاوحد !) و(التقرير النهائي !) و (البديهة التي لا جدال فيها !) « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا »(٤)« شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »(٥).

والمثير للعجب بشكل آشد هو آن يجيبك المزاجي اذا سألته (واحد + واحد) ماذا يساوي ٠٠؟ فيقول اثنين ٠٠! انه جواب صحيح ولكن لم تمله دواعي الصحة ولوازم الصواب وانما استدعاه المزاج لضرورة يحتاجها لتمرير رغباته أو الابقاء عليها ٠٠!

---

(٤) الآية ٨ سورة فاطر ٠

(٥) الآية ١١٢ سورة الانعام ٠

ولايضاح هذا الامر نضرب مثلا ..

حاكم لا يعير أحكام الله والايمان بها أي قـدر من الاهتمام يواجه تيارا يرفع راية الايمان والاحتكام الى تشريع الله ويكون هذا التيار ذا قوة تضايق الحاكم المذكور وتوشك أن تقـذف به بعيدا عن سدة الحكم فماذا يفعل ..!؟

ان هواه والحفاظ على بقائه حاكما يمليان عليه أن لايصارع هذا التيار صراع المعادي للدين وانما صراع المؤمـن المتظاهر بالحرص على أحكام الله ازاء (تلاعب المشوهين لهـا !) فنراه يبادر بسرعة الى تقمص شخصية المؤمن وان كانت بشكل مهلهل وتعاطي بعض مظاهر الايمان تمثيلا والاندفاع بكل قوة ومـن ورائه السذج لمحق (المتلاعبين بقدسية دين الله !) .

لقد حصل هذا بالفعل منذ التاريخ القديم ..

الم يقل فرعون « ذروني أقتل موسى وليدع ربه اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الارض الفساد »(٦) ..؟!

ان هدف ذلك الحاكم ومن على شاكلته هو أن يكسر حـدة التيار الممسك بتلابيبه وبعد التخلص من (الظرف الاستثنائي) و (أخطار المرحلة) بالقضاء على ذلك التيار يخلع رداء التظاهر بالدين والحرص عليه ويعود الى صفو كأس الهـوى والشهوات (فكأننا ما عرفناك يا دين لا بالحق ولا بالتزوير) ..!

---

(٦) الآية ٢٧ سورة غافر .

هذا صنف من الناس رغم تعدد الاشكال لدى طوائفه وتباين أساليبها يبقى مجتمعا على أصل واحد هو اتباع الهوى وتحكيمه بالتأثير على العقل واسقاط مقتضياته ، أما الصنف الآخر من الناس ذو العقول المشرقة بالبصائر ان فكر لا تكبل عقله أهواء ولا تستبد بقناعاته شهوات فشأنه مختلف تماما وهو موضع اشادة القرآن وتكريمه في أجمل تكرار وأسمى تنويه وأرفع منزلة « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون»(٧) عقل وعلم « وان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٨) لجموا الاهواء وفطموا نفوسهم عن الشهوات الطائشة وراحوا يتابعون استنتاجات التفكير الطليق و « انما يتذكر أولوا الالباب »(٩) ما أروع كلمة لب فقد تكون القشور كثيرة الى حد أن تنسي مقلبها أن وراء التقليب لبا ، والامر أشبه بفعل الغواص يستخرج النفائس فهو يغطس في مياه البحر البعيدة والاعماق السحيقة من أجل ماذا ٠٠؟ كي يلتقط لؤلؤة أو يقتطع مرجانة من صخم القاع ٠٠!

ان لؤلؤة في جوف البحر المحيط شيء ضئيل الحجم جدا حتى يكاد لا يذكر ولكن اللؤلؤة من النفائس النادرة ٠٠! أرأيت ضخامة القشور المحيطة باللؤلؤ من جهل الناس بموضعها الدقيق الى هول البحر الى شراسة الاخطار ٠٠!؟

---

(٧) الآية ٤٣ سورة العنكبوت ٠

(٨) الآية ٣ سورة الرعد وهي بتمامها « وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ٠

(٩) الآية ١٩ سورة الرعد ٠

اذن تأمل « الالباب » جيـــدا وحاول أن تكثر من المقارنة بين جواهر العقول والقشور التي تحيط بها وامكانات التقاطها من ثنايا الركام الهائل أحيانا ..!

تقرأ في القرآن الكريم آيات من قبيل « انما يخشى الله من عباده العلماء »(١٠)و« وما يعقلها الا العالمون » و« انما يتذكـر أولو الالباب » و« ان في ذلك لذكرى لمن كان لـه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(١١)و « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعـين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »(١٢)وكثيرة جدا هي الآيات التي تمجد العقـول الواعية وتشيـد بالحواس المتفتحــة والفكر المتحرك الدؤوب في عمليات العلم والتعلم والاعتبار والتدبر واستخلاص النتائج بشكل موضوعي نزيه وأمين بل والحكم على من لا يصغي لسمع الاذن وبصر العين والتقاط الحواس وفقه العقل بأنه أضل من الانعام ..!

ولكثرة ما تجد في هذا الكتاب العظيم من تمجيد للعقـــل واشادة بالعلم يوشك أن يذهب بك الاعتقاد الى أنه أنزل لقــوم علماء ذوي عقول راقية جـــدا متخصصة بدقائق العلوم وليس لاناس جهلة تطير صوابهم الخرافات وتأسر أفهامهم الاساطير ويتلاعب بأفكارهم الدجالون ..!

---

(١٠) الآية ٢٨ سورة فاطر .

(١١) الآية ٢٧ سورة ق .

(١٢) الآية ١٧٩ سورة الاعراف .

هذا الاعتقاد صحيح جدا لان ما في القرآن الكريم من كمال التشريع ورقي العبارة وسبر لاعماق النفس ووصف العلاج من حكيم خبير وكذلك ما فيه من نواحي الاعجاز التي وقف ازاءها العقل البشري قرونا عديدة مبهورا وسيبقى كذلك الى ما يشاء الله يليق بمقامه آن تخاطب به عقول بشرية من طراز رفيع .

والاصح من هذا والاكثر اعجازا منه هو آن كتاب الله لم يوجه خصوصا الى قوم لسمات معينة فيهم وانما آنزل الى الناس جميعا وفيهم الفيلسوف الذي استوعب في اختصاصه علم سابقيه وبز معاصريه ، وعلى شاكلة هذا في التخصص والاستيعاب المهندس والطبيب وآي عالم ولو كان متخصصا في آدق تفاصيل الكون والحياة والانسان ، وفيهم آيضا الامي والقليل العلم والبسيط التفكير ، وسواء كان الواحد من هؤلاء وأولئك فقير ذات اليد آو ذا ثراء واسع كل منهم يخاطب بآي القرآن الكريم مباشرة ودون واسطة ، كلام من رب العالمين الى عباده يخاطبهم به دون وصاية من آحد فيجدون به آحسن الوقع وآعظم التأثير ..!

اي عظمة في القرآن ..!؟

آية يسمعها فيلسوف استوعب اختصاصه لدى السابقين وبز بمكانته كل معاصريه فيقف مآخوذا بعظمة ما فيها من علم ودقة واحكام ، والآية اياها تلقى بنفس مفرداتها على رجل يزرع الارض غارقا في آميته فينتصب مبهورا يتملكه الخشوع لما تآدى اليه من معنى لا يمكن آن يصدر الا من خالق عظيم هو الله تعالى شأنه ..!

العالم الرفيع المكانةفي العلم والخبرة والاختصاص يتفاعل كما ينبغي مع آي القرآن الكريم ان هو أطلق سراح عقله من قيود الاهواء والشهوات وتعامل مع الحقائق بأمانة ونزاهة وشجاعة ، وكذلك الانسان الامي ان هو نحى تأثيرات الاهواء والشهوات عن عقله وقلبه وحواسه لا جرم يجد نفسه واقفا على جادة الحق ·

الاثنان يجمعهما شاطىء الحق ولكن الغرفة التي يغترفها اي منهما من بحر الحق يتحكم في مقدارها ما آوتيه من علم وتقوى « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(١٣) و« انما يخشى الله من عباده العلماء » و« ان آكرمكم عند الله اتقاكم »(١٤) ·

والعالم ذو المستوى الرفيع في العلم والخبرة والاختصاص ان هو حكم الاهواء والشهوات وسلطها على أحكام عقله ومنطق علمه لا يضير الحق شيئا ان هو لم يصغ لداعيه فالعيب كل العيب في هذا الانسان رغم كل ما عنده من علم وخبرة واختصاص لانه لم يسع الى الحق بتجرد ورافقه الاصرار المسبق على رفض داعي الحق حفاظا على بضع نزوات وحرصا على حفنة مطامع رخيصة ·

ولا عجب ان وفق زارع الارض الامي كل التوفيق في سعيه الى الحق بعد أن ينزع قياده من الاهواء والشهوات ويسلمه الى عقله وقلبه وحواسه .

---

(١٣) الآية ٩ سورة الزمر ·

(١٤) الآية ١٣ سورة الحجرات ·

الامر هنا لا يرجع الى علم أو أمية وانما الى شروط التعامل مع الحق ، فهذه الشروط ـ وفي مقدمتها تحرير العقل من استبداد الهوى ـ ان توفرت يبرز هنا عظم الاعجاز في الخلق والتشريع معا ، نص قرآني ضخم يجتمع على رباطه أكثر الناس علما وخبرة وأبسط الناس خبرة وتفكيرا ..!

أي اعجاز عظيم في هذا النص ..!؟

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(١٥) ..!؟

(١٥) الآية ١٤ سورة الملك .

في التربية والتبليغ

شعاع الأسوة

أنقذ من بريق الكلمات

آباء كثيرون لا يفتر أحدهم عن الشكوى المرة من (عـدم التوفيق) في تربية ولد أو بنت أو اصلاح زوجة أو جعل أفراد الاسرة مواظبين على سنن الهدى وتحريها والاستزادة من فيوضها.

سألت أحد هؤلاء الشاكين :

تقول انهم لا يؤدون الصلاة مثـلا من تلقاء أنفسهم وفي أحسن الاحوال يقومون الى الصلاة كسالى متثاقلين .. هل يعني هذا أن الاسوة غير حسنة ..؟

هل يعني أن النصح والاخذ بأيديهم لم يكونا منتظمين حتى

غدا هؤلاء الافراد نهبا لسبل أخـــرى تكره اليهم الايمان فيما تحبب لهم الكفر والفسوق والعصيان ٠٠؟

تمالكه الخجل لاني أعرف جواب ما سألت عنه ٠

قلت له :

ان كنت حريصا على استقامتهم فعلا ففي الامر بقية ومتسع الا انك يجب ان توطن نفسك على الجهد المضاعف والعمل المضني وقد كنت في غنى عن هذا لو آنك قومت النبتة وهي صغيرة أما الآن بعد أن اشتد صلبها فعليك أن تقومها برفق ودأب وجهـــد عظيم وصبر على المكاره ٠

واعلم أن أصح العمل وأزكاه في هذا المجال هو القائم على حسن الاسوة ٠٠ يا صاحبي عليك بحسن الاسوة في نفسك فانها تفعل فيهم اكثر مما تفعله كلمات النصح اذ ان هذه تبدو جوفاء ان لم تصدر عن متمثل لما يقوله ٠

أنظر الى سير الانبياء والمرسلين ، انهم لم يكتفوا بتبليـــغ الناس رسالات ربهم كلاما يلقى عليهم فحسب بل اعتبروا حسن الاسوة في أنفسهم من أعظم وأجل المبلغات تأثيرا فيمن توجهوا اليهم بالتبليغ ، وهذا شأن الهداة كلهم ، هكـــذا اختارهم الله عزوجل ٠

فلماذا لا نقتدي بهذا الهدي «فبهداهم اقتده »(١) لاسيما أن

(١) الآية ٩٠ سورة الانعام ٠

هدي خاتم الانبياء والرسل صلى الله عليه وسلم بين آيدينا وهو على أتم ما يكون لم يدع أمرا من آمور الدنيا والآخرة الا وآلقى عليه نورا يبين الحق ويفضح الباطل ٠

هل وضعت ـ مثلا ـ قوله صلى الله عليه وسلم موضع التطبيق « مروا أولادكم بالصلاة اذا بلغوا سبعا واضربوهم عليها اذا بلغوا عشرا وفرقوا بينهم في المضاجع »(٢) ٠٠!؟

اعتقد آن أخذ الاب بهذا التوجيه النبوي الى جانب التزامه حسن الاسوة في نفسه يعذره أمام الله وهذا هو الاهم ـ آن تؤدي ما ائتمنت عليه ـ أما نتائج العمل فتحتاج لكي تكون ايجابية الى تضافر جملة آسباب ٠

اذا كان المرء يدعو الآخرين مرة آو بضع مرات فانه يدعو أفراد آسرته مرات بلا عدد لانه نموذج يتحرك بينهم ان كلمهم فاض الهدى بحروف مقرونة بفعل قريب مشاهد ومعاش بكل تفاصيله وان سكت أومأت كل خصلة فيه بايحاء أبلغ من النطق يكون وهاجا لانه خصال تتحدث مجتمعة بما هو آبلغ من الكلام ٠

ومن هنا اهتمام القرآن بالسير وحسن الاسوة في هداية الناس آكثر من التعويل على الكلام ٠٠ لماذا ؟ ان السيرة تعني القوانين الفاعلة التي تشيد صروح المهتدين بشكل آشد وضوحا وأعمق تآثيرا وآجزل نفعا وآعم انتشارا ٠

---

(٢) رواه احمد ٠

فان يتلقى المرء وهج النور من مجموعة خصال متمثلة بسلوك انسان لهو أقوى فعلا وأشمل مضمونا من كلمات يسمعها في موضوع واحد يعي بعضها وينسى بعضا وقد يطبق بعضها ويشكل عليه تطبيق بعض ، أما السلوك المجسد للعيان في انسان مألوف فادراكه لا يصعب على الصغير تقليدا ولا يتعذر على الكبير فهمه اعتقادا .

نعم .. النموذج المتحرك أشبه بقانون عليه حارس أمين قوي مبين يخبر الناس بأن هدايات الله كلها مفهومة المقاصد ممكنة التطبيق حسنة السمت ، أما الكلام المجرد من التطبيق فبينه وبين الفعل شوط ربما يطول ، فقد تفهم قلة من الناس كل مقاصده وقد تفهم كثرة منهم القليل من مقاصده ، واذا فهمه الكبير فان الصغير قد لا يفهمه على الوجه المطلوب .

وكل نبي أورد القرآن الكريم لمحات عن حياته هو نموذج في التطبيق العملي لاوامر الله تعالى ونواهيه ، ففي سنن الله لا يجوز أن تأمر بفضل وتنهى عن خلق وأنت غير ملتزم بذلك أو لا تقدر على الالتزام به أو لا تقيم له وزنا في حياتك .

بل ان الصورة التي نجدها في القرآن لاولئك الدعاة العظام وفي مقدمتهم سيدنا محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام تشير الى أن النبي هو مثل أعلى لما يراد من العباد الايمان به ، فليس منطقيا أن تلتزم بالحد الادنى وتطلب من الاتباع أن يبزوك ببلوغهم الحد الاعلى .

انه قانون هداية صارم.. ومنه كان التأثير الفعال للانبياء فيمن بعثوا اليهم ، ومن هنا تكون الاستجابة التي لا تقاوم باذن الله ، ومن هنـــا تكون المبادىء الصادقة والتبليغ القــوي السليم والتربية التي لا تنصهر بفعل صروف الحياة مهما اشتدت لانهـا خالطت اللحم وجرت مع الدم وغدا العيش لا يستوي الآ بتطبيق مقتضياتها وازدهار أحكامها .

ويبقى مثل المبلغ والمربي كالزارع الذي بـــذر الحب ثم تعهده بما يحتاج اليه من الجهد والعناية فاذا بعضه يمد عنقــه الى فوق وبعضه لا يحرك ساكنـــا لم يتفاعـــل مـــع التربة والماء والشمس والهواء وكل أسباب الحياة والنمو ..!

وعدم الآستجابة لدواعي الهداية وهواتف الايمان لا يعني اطلاقاً أن الجهد ناقص أو الاسلوب مختـــل أو غيـآب الاســوة انما يعني كما اعتقد أن الحبة عمل غير صالح ، ولكن ينبغي أن لا نصل الى الاستنتاج الاخير في وقت مبكـــر وانما بعـــد آداء الواجب كاملا وبشتى الاساليب..!

سيدنا نوح وهو من أولى العزم من الرسل دعا أفراد أسرته وبني قومه فمنهم من استجاب ومنهم من آبى لاسيما امرآته وابنه الغريق الذي لم يعدم حنو آبيـــه ونصح آبيه حتى آخـــر لحظات حياته :

« ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا

تكن مع الكافرين ۰۰ قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ۰۰ ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من آهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ۰۰ قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين »(٣)٠

لم يقصر هذا الاب النبي مع ابنه اطلاقا فالقرآن يشهد بأنه كان واسع الصدر معه لا يدخر نصحا رغم العناد بل انه ذهب الى ما هو أبعد من النصح بأن دعا الله لخير هذا الابن العنيد ، فلم يعط ما سأل ۰۰ لماذا ؟ لان الولد شقي ، وما آشبهه بتلك الحبة التي اسودت داخل التربة وتعفنت ولم تلحق بركب مثيلاتها الناهضات الى العطاء الآخذات بالنمو ۰۰!

« انه عمل غير صالح » ٠

ولعل هذا التقرير كان خير عزاء لذلك الداعية العملاق عليه الصلاة والسلام وشهادة بانه لم يقصر ولم يخنه الاسلوب وكذلك لايعد فاشلا ۰۰ وهنا ملاحظة يجب آن لا تفارقنا في ساحة التبليغ والتربية هي آن ذلك العزاء الرباني لنوح جاء بعد العمل والجهد وليس قبلهما آي ان الله تعالى لم يقل لنبيه في البداية لا تضع جهدك مع ابنك لانه « عمل غير صالح » وانما طلب منه أن يدعو قومه لما بعث به لا يحجب الدعوة عن هذا

(٣) الآيات ٤٣ و٤٤ و٤٦ و٤٧ سورة هود ٠

ويخص بها ذاك ، وأما ما وراء ذلك فامره موكول الى الله جل ثناؤه •

وما يقال بشأن سيدنا نوح يقال أيضا عن سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام فانه دعا أفراد اسرته وبني قومه واعجب ما ظهر له أن امرأته كانت في عداد الكافرين :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين »(٤) •

« ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين •• انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون •• وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون •• فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين •• وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين »(٥) •

وكذلك الشأن بالنسبة لخليل الرحمان سيدنا ابراهيم :

« واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين »(٦) « الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك

---

(٤) الآية ١٠ سورة التحريم •

(٥) الآيات ٨٠ـ٨٤ سورة الاعراف •

(٦) الآية ٧٤ سورة الانعام •

وما أملك لك من الله من شيء »(٧) ٠٠ قال هذا قبل استيقانه من اصرار أبيه على الشرك ، قاله راجيا ايمانه ومتوقعا له « وماكان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياها فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم »(٨) ٠

وشبيه بهذا حصل لسيدنامحمد صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب ، كان حريصا على ايمانه لا يدع فرصـــة تمر دون دعوته للاسلام بل انه لم ييأس منه حتى لما كان أبو طالب على فراش الموت ولكن دون جدوى ، فقال له الله تعالى بعد كل الجهد الطويل الذي بذله بكل الحرص « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »(٩) ٠

ومما يلاحظ هنا أن الانبياء كلهـــم كانوا يحرصون على الخطوة الاولى وهي انتزاع الايمان ممن يدعونه أما باقي الخطوات التي تعقبها والمتعلقة باعداد الانسان الجديد فأمرهـــا متروك لعملية التفاعل بين المرء ومبادىء الهداية التي لا محـــالة تؤتي أكلها باذن ربها ٠

وهناك حالة قد يشكل تفسيرها على البعض متمثلة بامرىء يواظب على أفعال الايمان ولكن لا يبدو عليه تأثيرهـــا كالائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر ٠٠ أتدري لماذا ؟ هنا ينبغي أن لا تتهم فاعلية مبادىء الهداية بعدم الجدوى وانما عليك أن تتهـــم

(٧) الآية ٤ سورة الممتحنة ٠
(٨) الآية ١١٤ سورة التوبة ٠
(٩) الآية ٥٦ سورة القصص ٠

من يؤدي أفعالها بدون عزم قلبي وبدون تفاعل حقيقي .

وتذكر بهذا الخصوص مثلا قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشأن الصلاة اذ هي بمثابة العمود الفقري للاسلام « من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف »(١٠) .

فالارتباط الحقيقي بين المرء ومبادىء الهداية لو كان حاصلا بيقظة روح وصدق توجه وعزم يقين ولذة خشوع في الباطن والظاهر معا لوجد الصرح المؤمن قلبا وقالبا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأتي الحلال ويكافح الحرام وينصر الحق ويحارب الباطل .

الانسان اذا لم يستجب لداعي الله رغم كل الاضاءات المنبعثة بصنع ربنا وتقديره من نماذج الهدى المتحركة بين الناس ، فليس هناك وصف له أبلغ من « انه عمل غير صالح » ومثل هذا المخلوق لا يبعث على الاسف ، ولا ينبغي أن نعتبر جهودنا ضائعة معه لان ما نعمله هو امتثال لامر الله ، والعبد المتمثل لامر ربه غير مسؤول ان استجاب هذا ولم يستجب ذلك ، المهم هو قيامه بفرائض التبليغ والتربية للاعذار أمام الله وابراء الذمة .

والموضوع ليس ابراء ذمة وكفى انما هو حسن ابراء الذمة

---

(١٠) رواه احمد .

أي أن نجند كل ما نمتلكه من طاقات وذكاء وتفنن واخلاص ودأب لتحقيق الغرض « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »(١١) .

هل يستوي من يؤدي ركعات صلاة مستحضر الذهن مستيقظ الجوارح مع من يؤدي تلك الركعات متعجلا لم يفقه مما قاله بين يدي الله شيئا ..!؟

أي أن ابراء الذمة لا يكون الا بالطريق الاصح الاجدى وليس كيفما اتفق انهاء لجهد العمل وتخلصا من ضغط الامتحان واستعجالا لجزيل الثواب .. ان هذا لا يدل على الاخلاص الذي هو عمود الصلة بين العبد وربه .

فيا صاحبي هل أن التوجيهات العظمى المبثوثة في ثنايا القرآن الكريم الذي نتلوه آناء الليل واطراف النهار قد وضعت موضع التطبيق العملي السليم وقد وجدت التفاعل الايجابي الصحيح في مجال التبليغ والتربية مثلا ثم حصل الاخفاق بأن تجيء النتائج عكس المنتظر ..!؟

معاذ الله ..!

هل يبقى عطش ان ارتوى الظمآن بالماء القراح ..!؟

كلا .. فقوانين الحياة لاتسمح بذلك ، هكذا شاء الله تعالى ..!

---

(١١) رواه البيهقي .

أما ان لم نهرع الى الاخذ بتلك التوجيهات رغم انهـا في متناول أيدينا ولم نعشها بصدق وحزم فلا عتاب على الدواء ولا ملامة على الطبيب، عندئذ يكون الخلل فيمن جلس بمنأى عن الدواء غير عابىء بنصائح الطبيب وراح يشكو فداحـــة العلل بمرارة وهي تفتك به دون رحمة ٠

عجبا للبعض أحيانا يكون ذكيا ويكون دقيقا ويكون حريصا في توافه الامور وصغائرها وعند الكبيرة منها يبدو بعقل عصفور لا عزم له ولا حرص ولا حركة يحسب أنه مكتوف وما هو بمكتوف بل هو كامل القوى طليق اليدين بامكانه صنع الاعاجيب ٠٠!!

ولكن ٠٠ لم العجب ٠٠!؟

ان هذا البعض كتلك الحبـــة السوداء المتعفنة التي أبت التفاعل مع أسباب الحياة ٠٠!

« انه عمل غير صالح » ٠٠!

موعظـــة لقمان

معــالم مضيئــة لا يفتر توهجهــا

لو أراد أحدنا أن ينصح ابنه بجوامع القول وأعلى المقاصد فما تراه يسدي له ٠٠؟

قد تقول ان الاسوة في شخص الاب ينبغي أن تسبق الكلام ليكون للنصيحة مساغ ولباس صدق وتحري الافادة ، وقد يقول آخر ان خلاصة حسن الاسوة في الاب ليس بعدها نصيحة أبلـــغ وايحاء أفعل وتاثير أزكى ٠

هذا وذاك حق ، ولكن دعوني أجيب على ما سألت ٠

لقمان الحكيم رجل اهتم القرآن الكريم بسيرته أجل اهتمام في مدار تربية الابناء واخلاص النصح لهم ، ولعل اشادة احدى سور المصحف بهذا الموجه وتخليد ذلك الى يوم القيامة بين دفتي كتاب الله ليستهدي به المؤمنون فيما يستهدون به من خير الهدي المسطور في الثلاثين جزءا لاوضح دليل على أن ما أسداه لقمان لابنه من النصائح يعتبر فريدا في موضوعه ٠

ولو استقصينا هذه النصائح لوجدناها كثيرة وكل واحدة منها زكية تفيض بالخير والحق والهداية الا أن الذي شد انتباهي اليه هو بضع جمل قصيرة وجدتها لو قيلت وحدها نصيحة من كل أب الى كل ابن لو سعت الاثنين في التربية والتبليغ وآغنت آي اغناء من أب حسن الاسوة لابن جيد التلقي كالحبة تتفاعل مع أسباب الحياة في المنبت الكريم ٠

« يا بني أقم الصلاة »(١) ٠

أقم عمود الصلة بينك وبين الخالق جل ثناؤه ، لقد ابتدأ نصائحه برأس الامور ٠٠ وانها ليست « أقم » فحسب ، انها كلمة تتضمن في معرض الايجاز الجميل هذا كل ما يقتضيه اقام الصلاة من خلوص النية وجمال التوجه واتقاد الذهن واستحضار المعاني وابداء الخشوع ٠

نعم انها صلة بالخالق عزوجل وليست أفعالا لرياضة الجسم ٠٠ صلة يتكرر فيها الحضور في رحاب الله أداء لحق العبادة وتتوالى فيها المناجاة من العبد الضئيل الى الاله العظيم

(١) الشطر الاول من الآية ١٧ سورة لقمان ٠

محملة بكل معاني الصدق والافتقار والتقرب والتماس دوام التوفيق للحسنى وابتغاء الرضى وحسن القبول ٠

لو أحاط المؤمن بمعنى الصلاة واستحضر مدلولها باستمرار وآوفاها حق قدرها لحرص عليها كالانبياء ، ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر وقتها بلهفة ويكثر من النافلة ٠٠!؟

لانه يعرف جيدا الى من يتوجه بها ٠٠!

ولو كنت ممن يدخل على الملوك والرؤساء بكثرة لعرفت سر ذلك الاهتمام النبوي بالصلاة مع الفارق الهائل بين لقاء عبادة يمثل فيه المؤمن أمام رب العالمين ولقاء غير مقدس يقف فيه الانسان أمام مخلوق مثله ٠٠!

« وآمر بالمعروف »(٢) ٠

آن تآمر بالمعروف فمعنى هذا أنك مؤتمر بالمعروف متسربل بكسائه متجمل بفضائله معتز بقيمه لا يهتز ايمانك به ، بعد هذا الاستعداد يحسن آداء الرسالة بين الناس في الامر بالمعروف ويجد الاداء من يصغي له تلقيا ويفكر به تأملا ويتجاوب معه اقتناعا ٠

اي نفس عظيمة تلك التي تآخذ على عاتقها رسالة نشر المعروف بين عباد الله وبالاساليب التي تحببه اليهم وبالاوضاع التي تشجعهم عليه ٠٠!؟

---

(٢) الشطر الثاني من الآية ٠

انها النفس الممتلئة فعلا كـــل الامتلاء بمزايا المعروف ، النفس المتصلة أسمى الاتصال بربها ٠٠!

ومثل هذه النفس تظهر عظمتها بكل جـلاء في المجتمعات التي يشح أفرادها بالفلس على بعضهم وهم بما هـــو أكبر من الفلس أشح ، المجتمعات التي يتقاتل أفرادها على ما هو تافـــه ويدمر بعضهم بعضا لاجل مطمع حقير ٠

انهـــا النفس التي غسلت فيوض المعروف كـــل أدرانها وطهرت ساحتها من الرذائل والقبائح والآصار ٠٠ تأمر هـــذه النفس بالمعروف ولا تلاقي أحيانا ممن تسدي اليهم المعروف الا الصدود والنكران لاسيما في مثل المجتمعات المشار اليها التـــي يعز على أفرادها الجود بالفلس ، ورغم هذا تظل عزيمة النفس الآمرة بالمعروف قوية لا تنكسر ولا تلين بل تزداد اصرارا على أن يأخذ المعروف مجراه بين فاقدي فضائله ، ومن هنا يظل صاحبها يفكر ويدرس عله يتوصل الى أسلوب أنفع وبرهان أسطع ليعاود الكرة وهكذا ٠

لماذا لا يكل ٠٠؟

لماذا لا يصاب بالخيبة ٠٠؟

لماذا يتزايد اصراره على نفع الجاحدين ٠٠؟

لانه يعتقد أن ما يقوم به هـــو عبادة ، بل أسمى مراتب

العبادة تلك التي لا يقصر فضلها على نفسه وانما يشمل به الآخرين ولو قابلوا صنيعه بالجحود والفظاظة والعدوان ..!!

« وانه عن المنكر »(٣) .

الامر لا يتوقف عند اشاعة المعروف وانما يرتبط به النهي عن المنكر لاخلاء الطريق أمام المعروف من العوائق والادران رغم ما قد يستدعيه من مقارعة أعتى الناس واحتمال أشد الايذاء واقسى العذاب .. والاساليب كثيرة تبدأ باللين ولا تنتهي بالقوة حتى يزال المنكر ويكون المعروف سائغا للجميع .

لا فرق بين أن تقيم الصلاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر كلها في العبادة سواء ولست مخيرا في أن تنتقي منها السهل المريح وتترك الصعب الثقيل .. ان الله تعالى رحيم بعباده فلا يريد بذلك تعذيبهم وانما أن يتيح للانسان باحتمال هذه المهام وآشاعتها بين الناس أن يكون طرازا من البشر رفيع المستوى .

« واصبر على ما أصابك »(٤) .

معنى هذا أن تتوقع الصعاب ابتداء وتنتظر المكاره وأن تستعد لتوطين النفس على مواجهتها والصبر على كل ما تتأذى منه مهما تبلغ شدته لان الصبر مطلوب في الطراز البشري الرفيع كما اقام الصلاة كما الامر بالمعروف كما النهي عن المنكر .

---

(٣) الشطر الثالث من الآية .

(٤) الشطر الرابع من الآية .

الانسان الصابر على كل ما يصيبه يختلف تماما عمن لا صبر له فهذا الاخير لا صبر له بالتأكيد على أداء لوازم الصلاة ولا صبر له ايضا على متطلبات الامر بالمعروف ولا صبر له كذلك على شدائد النهي عن المنكر ٠

ومن هنا فان فضيلة الصبر عظيمة بين الفضائل ، وعالي المرتبة هو الانسان الذي يقول ويطبق وينصح اخوانه بما التزم هو به ، بل ويتلقى منهم أشد المكاره فلا تتكدر نفسه وانما يستقبله باعطاء العذر لغيره ثم يعاود الكرة معهم متهما نفسه بعدم التوفيق وبالتقصير في أسلوب ايصال المعروف الى الآخرين أو ابعادهم عن المنكر ويدعو ربه أن يسدد خطاه وأن يرزقه حسن العبادة في أحواله كلها سواء كانت صلاة أو أمرا بالمعروف او نهيا عن المنكر أو صبرا على ما يصيبه ٠

« ان ذلك من عزم الامور »(٥) ٠

هكذا يكون العزم لمن أراد أداء رسالة في الحياة ، وهو بعد أن يحكم أمره هذا الاحكام لا محالة أن يعطي عمله كل الثمار باذن الله تعالى لانه هيأ لمواجهة الامور ما تستحقه من كفاية استعداد وصدق تعامل في أداء المهام لا يستحوذ عليه طمع ولا يستولي عليه هلع انما الشأن عنده فوق ذلك لانه في اوقات عبادة وأفعال عبادة بل ان العمر كله في عقيدته هو ميدان عبادة ٠

---

(٥) الشطر الاخير من الآية ٠

هناك من يعتبر لقمان نبيا ومن يعتبره أحد الصالحين ، ولكن أيا كان الرجل فلا خلاف في أن الله تعالى اختار أقواله في التربية والتبليغ لتكون قبس نور يستهدي به أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما يستهدون به الى يوم القيامة بعد أن قال عنه « ولقد آتينا لقمان الحكمة »(٦)٠

الله العزيز الحكيم يقول انه اعطى هذا العبد الصالح الحكمة ، فتأمل أي حكمة تكون تلك الممنوحة من خالق الحكمة ورب الحكماء ٠٠!! « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب »(٧)٠

أي وصف تستحقه نصائح لقمان أكثر من تزكية ربنا ٠٠!؟

ان كلمات هذا الرجل التي نصح بها ابنه رغم أنها قليلة العدد ومحصورة بين دفتي آية قد لخصت رسالة كبرى في الحياة، والمتمعن فيها يجد أنها ليست مجرد كلمات وانما هي فيوض تجارب وحكمة وايمان منسقة بما يؤدي الى فاعليتها عند المحك٠

كلمات قليلة العدد فيها الغناء كله كما رسالة الانبياء فيها الغناء كله ٠٠ ذلك تعليم قرآني لنا ان نصحنا وان بلغنا وان ربينا وتبصير لنا بجوامع القول السديد الناضج المغني الفعال ٠

آية لا تتجاوز السطرين فيها الهداية والنور قد ضمنا لاولي

---

(٦) الآية ١٢ سورة لقمان ٠

(٧) الآية ٢٦٩ سورة البقرة ٠

الالباب الى آخر الزمان فوق الارض ٠٠ أو ليس هو الذكر الحكيم ٠٠!؟

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »(٨) ٠

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد »(٩) ٠

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد »(١٠) ٠

---

(٨) الآية ١ سورة هود ٠

(٩) الآية ١ سورة ابراهيم ٠

(١٠) الآية ٢٣ سورة الزمر ٠

أليس الله بكـاف عبـــده ..!؟

عندما تكون مؤمنا مترع القلب بالايمان الخالص العميق الاغوار ماذا ستقول جوابا على هـذا السؤال « أليس الله بكاف عبده »(١) .

أحسبك تجيب بالقول : بلى يارب « وكفى بالله وكيلا »(٢) .
هذا ما تقوله وأنت مرتاح البال في أيام الرخاء .

ولكن وضع المؤمن عندالشدة يختلف عنوضعه عندالرخاء .

---

(١) الآية ٣٦ سورة الزمر .
(٢) الآية ٤٨ سورة الاحزاب .

ولو كان وضعه في الحالتين لا يختلف اذن لانتفت حاجته الى تذكير من ربه بكل الوضوح والقوة من مثل « أليس الله بكاف عبده » . نعم هناك اختلاف أشبه بوضع الانسان ساعة الامتحان ووضعه خارجها ، وأشبه بحال الانسان مريضا يعاني الآلام وتباريحها وحاله وهو سليم معافى .

وايمان الرخاء يكاد يكون بلا معنى ان لم يمر صاحبه بالمحن والشدائد فيبرهن على استواء الشأن عنده بما آمن به في أوقات الرخاء والشدة والمنشط والمكره واليسر والعسر .

والله تعالى يشير الى ضعف المؤمن عند الشدة كما يشير كاهل الانسان الموقر بالاثقال الى ارهاقه « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » .. ولذلك يأخذ رب العزة والجلال هذا الضعف الانساني بالاعتبار حيث يحتاج المؤمن فيه الى التذكير والتثبيت والحنو .

فالله الغني الحميد ليس بحاجة الى تعذيب عباده بالشدائد والمحن وانما العباد هم أحوج ما يكونون عند حلول هذه الفرص الى البرهنة بأنهم طراز رفيع بين خلق الله فيثبتون صحة ايمانهم وبأنه ليس مجرد قول وادعاء وانما هو ما صدقه العمل والرسوخ وقت الزعزعة .

المؤمنون الاوائل كانوا يتلون آي القرآن الكريم التي تتحدث عن (صفقة) الايمان التي جعل الله (ربحها) الجنة

فيرون عظم الجزاء وتنزوي حياة الانسان في عيونهم حتى تكاد لا تساوي شيئا ازاء ذلك النعيم الابدي ورضوان الله الدائم ٠٠!

كان هذا في ساعات الرخاء ، أما عند الشدة حيث تختبر البواطن وتستظهر حقائقها فالامر يثقل على صاحبه ويشتد ولكنه يتحامل ويتشبث بكل مالديه من طاقة بحبل الايمان حتى يفرغ من البرهنة على استواء حالتي الرخاء والشدة في رسوخ حقائق الايمان في قلبه وصفاء جوهره ٠

« اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ٠٠ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »(٣)٠

ولاعطاء لمحة عن هذه الحال نذكر هنا ما اورده ابن اسحاق في السيرة :

(قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان :

يا أبآ عبدالله أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ٠٠٠؟

قال : نعم يا ابن أخي ٠

قال : فكيف كنتم تصنعون ؟

---

(٣) الآيتان ١٠ و١١ سورة الاحزاب ٠

قال : والله لقد كنا نجهد ٠

قال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الارض ولحملناه على أعناقنا ٠

قال حذيفة : يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق(٤) وصلى رسول الله هويا من الليل(٥) ثم التفت الينا فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم(٦) ثم يرجع – يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة – أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فما قام رجل منا من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني)(٧) ٠

فرق واضح بين حال المرء عند الرخاء وحاله عند الشدة فالقول خفيف الوطأة والحمل أما الفعل فانه شديد ثقيل عسير أحيانا ، فالرجل الكوفي قال وأحسن وهو في حال رخاء أما لو كان في حال الشدة أيام الخندق مثلا لعانى من ضغوط الخوف الشديد والجوع المنهك وزمهرير الليالي كما عانى أولئك الصحب الاجلاء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ان لم تكن معاناته أشد ٠

---

(٤) حصار قريش وحلفائها للمدينة سنة خمس للهجرة ويسمى ايضا غزوة الاحزاب ومعركة الخندق ٠

(٥) قطعة منه ٠

(٦) أي الاحزاب التي تحاصر المدينة ٠

(٧) السيرة النبوية لابن هشام المجلد الثاني ص ٢٣٢ ٠

وما أعظم تثبيت الله للعبد المؤمن عندما يظل مستحضر اليقين بوعود ربه « أليس الله بكاف عبده » ..!؟ نعم يارب « ويخوفونك بالذين من دونه » .. ومن هؤلاء حتى أخافهم ..!؟ واذا كان الله العلي الكبير معي فلا مخيف في الدنيا أخشاه لان رب العالمين حسبي ونعم الوكيل ..!

المطلوب اذن هو الحياء من الله عند أي خالجة تمر على مشاعرنا فننساق وراءها متوقعين ضررا أو مرتقبين نفعا من أحد المخلوقين .

التخويف يحصل بكثرة غير أنه لا يفعل فعله الخبيث المطيح ببناء المؤمن الا عند غياب معاني الايمان وحقائق اليقين وضعف الرابطة بالخالق جل وعلا .. ان عدم استحضار اليقينيات ومعاني الايمان هو ثغرة الضعف الفادحة الضرر في المؤمن وهي الغرة التي يؤخذ منها .

أتذكر حالات كثيرة كانت تضيق فيها الازمات حول خناق رجل أعرفه فيفوض الامر برمته الى الله تعالى ـ وهو سبحانه يتحكم به في كل الاوقات والاحوال شاء الانسان أم أبى ـ ويردد (لا حول ولا قوة الا بالله .. اللهم احمني بحولك واكفني بقوتك) .

ومن لا حول له ولا قوة ماذا يصنع سوى أن يلجأ الى من بيده الحول والقوة ..!؟ ولكن الضعف عند الازمة قد يجعل

الانسان يفكر بأهمية التعلق بقشة بل ويتشبث بها بدل اللجوء الى خالق القشة ومسيرها الى حيث يشاء ٠

وأذكر أن أوضاعه عندما كانت تقترب من الانهيار كان يظل وثيق الاتصال بالله فيشعر بالراحة تغمر كيانه ويلاحظ التثبيت القوي يملأ فؤاده ، ويجد هاتف الايمان يقول له : انك اذا انسحقت فبارادة مولاك تنسحق ٠٠ فيبادر ويقول : انه لنعم الانسحاق مادام مشيئة خير الراحمين ٠

ثم يقول هاتف الايمان له : كم مر عليك من الازمات التي كنت تحسب الواحدة منها قاتلة فنجاك الله تعالى منها فلماذا لا يعمر قلبك اليقين بأن الله الذي بيده مقاليد كل شيء سيكتب لك النجاة اذا أراد ٠٠!؟ ألا تعلم أن أجل العبادة هو انتظار الفرج فلماذا لا تكون رابط الجأش وأنت الآن تستزيد من الاجر العظيم وتحظى بالتكفير عن ذنوبك ٠٠!؟ ألم تذنب ٠٠!؟ فيجيبه : بلى والله ٠٠!

فيتابع هاتف الايمان قوله : أترضى أن يطهرك الله من ذنبك الجسيم بمحنة تلم بك ثم تنقشع ٠٠!؟ فيشعر بالخجل ويقول : والله ان جسامة ذنوبي لا تطهرها محن دنياي كلها لو أصابتني ولكنه كرم الله أكرم الاكرمين يفيض علي رحمة بي أنا العبد الضعيف ، رباه ما أرحمك ٠٠!

وكان يشعر في بعض الازمات أنه يكاد يسقط من ثقل الازمة ولكنه كان يتماسك معتقدا أنه حتى لو أشرف على السقوط

فان الله سيمنعه طالما أن له بقيـــة في الحياة متذكرا قوله تعالى « وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله كتابا مؤجـــلا »(٨)« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب »(٩) ٠

فينعم بالراحة حتى وهو مشرف على الموت معتقدا أنه لومات فمعنى هذا ان اجله قد حل وانه « كتابا مؤجلا »(١٠)« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »(١١)مرحبــا بلقاء الله و« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »(١٢)ولماذا لا يشعر بالراحـة على الدوام طالما أن ما يصيبه هو قدر الله الرحمن الرحيم « قــل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا »(١٣) ٠٠!؟

وأذكر أن أعواما مرت عليه كــان يهيـــج خلالها العصب الخامس في وجهه أشد الهيجان فيذيقه اعنف الالم بحساسيته اذ أن الاكل يثيره وشرب السوائل يثيره وبلع الريق يثيره وبلل الخد يثيره والمشي يثيره بل الكلمة على قلة حروفها يجيب بها السائل تثيره ٠٠ فيقول : اللهم لك الحمد والشكر والثناء عدد خلقــك وزنة عرشك ورضاء نفسك وعدد ما تعلم أنه الاكثر والادوم على ما أوليتني من نعم وعلى حسن الفاتك نظري لجليل ما أنعمت وما خفي اعظم ولا يحيط به سواك ، اللهم لا نحصي ثناء عليك أنت

---

(٨) الآية ١٤٥ سورة آل عمران ٠
(٩) الآية ١١ سورة فاطر ٠
(١٠) الآية ١٤٥ سورة ال عمران ٠
(١١) الآية ٦١ سورة النحل ٠
(١٢) الحديث بتمامه « من احب لقاء الله احـب الله لقـاءه ومن كره لقاء الله كـره الله لقاءه » رواه البخاري ٠
(١٣) الآية ٥٢ سورة التوبة ٠

كما أثنيت على نفسك ٠٠ رباه لو أن كل أعصاب الجسد هاجت كهياج العصب الخامس فما كان يجري للانسان هـــذا المخلوق الضعيف ازاء أي حركة ألم جسمية ٠٠!؟

يا لرحمتك يارب ٠٠!

وكان يقول لنفسه عندماتشتد الازمة ـ وهو من تثبيت الله له ـ أن ما يواجهني من مشاق يعد يسيرا بالقياس مع ما أعطاني الله من نعم كثيرة لا تحصى ٠٠!

ثم يسأل نفسه : بم تشترين نسمة هواء واحدة لو امتنــع عليك استنشاقه ٠٠!؟

فتهدأ نفسه بل يولي الشيطان بوساوسه مذعورا من هــذا التفكير ، فيقول : ان الله تعالى وقد أنعم علي بما هو أعظم أهمية من نسمات الهواء بملايين المرات لا جرم أنه لن ينساني « ومــا كان ربك نسيا »(١٤) ثم ينبغي أن لا يفارقني وعــده وهو أصدق القائلين « فان مع العسر يسرا ٠٠ ان مع العسر يسرا »(١٥).

الله العزيز الحكيم الغني الحميد يقطع عهـــدا بأن العسر لا محالة زائل وان اليسر لابد آت أفلا يتحقق ذلك ٠٠!؟ كيف لا يا نفس « ومن أوفى بعهده من الله »(١٦) ٠٠!؟

وكان في معمعة الآلام عنــدما يتذكر ذنوبــه الصغير منها

(١٤) الآية ٦٤ سورة مريم .
(١٥) الآيتان ٥ و٦ سورة الشرح .
(١٦) الآية ١١٢ سورة التوبة .

والكبير القديم منها والجديد يكاد يستقل تبريح الآلام ويشعر بالرضا يدب في عروقه معتقدا آن الله اللطيف بعباده لا يريد تعذيبه ـ حاشاه ـ وانما تطهيره من الخطايا وفتح مغاليق فهمه وآن يكسبه حلو المزايا ويرزقه فيوض الحكمة ونعما أخرى كثيرة العدد جليلة القدر الله اعلم بها وحده ٠٠ أو ليست الآلام المبرحة لا تساوي شيئا بالقياس الى ما يتاح للمؤمن عبرها ٠٠!؟

ويتذكر المحن والشدائد والآلام التي يمر بها الرسل والانبياء والعباد الصالحون وهم آحب الخلق الى الله وعندالمقارنة بين مصائبهم ومصيبته يحس بالحياء يتملكه ويقول : ما تساوي معاناتي بالقياس مع معاناة أحباء الله ٠٠!؟ متذكرا أقسى الآلام التي ذاقها آولئك الخلق الكرام في سبيل تبليغ رسالات الله للناس ٠٠!؟

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف على قدميه قاطعا نحو خمسين ميلا يلتمس النصرة من آهلها عله يجد فيها عزاء لما يلاقيه في مكة من اعراض ومضايقة وبأس ، ولكن رجال ثقيف لم يحسنوا استقباله ولم يكتفوا بعدم الاستجابة بل آغروا به السفهاء والصبيان والعبيد الذين راحوا يسبونه ويصيحون به وهم يقذفونه بالحجارة حتى آحدثوا عدة جروح في جسمه وسال الدم من قدميه فجلس من الاعياء في ظل بستان ٠

ما تراه يفعل الآن ٠٠؟

هل يغضب ٠٠؟

هل ينتقم ٠٠؟

انه رسول الله وما قام به هو شيء من واجبات الرسالة التي كان يعرف مسبقا أي تبعات تعني ٠٠!

ولكن الالم يعصر القلب عندما يتطوع الانسان وبأقصى الحرص في اسداء المعروف للآخرين فيقابل بأنكر الجفاء وأسوأ الرد وارذل الخلق ٠٠!

وطبيعي أن يلجأ الى ربه في مثل هذه اللحظات ، وهذا ما فعله بالضبط فناجاه بدعاء يقول فيه :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ أم الى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك »(١٧).

فلو كان الله تعالى يريدتعذيب عباده بتكاليف الحياة وأعباء الامانات لما كان معذبا أصفياءه من خلقه ٠٠!

اذن هذه سنن الله في دنيانا وينبغي أن لا تقابل الا بالصبر الجميل والادب اللائق معه عزوجل والشكر الحسن المتواصل على

---

(١٧) السيرة النبوية لابن هشام المجلد الاول ص ٤٢٠ .

ما أخذ وعلى ما أعطى ، اذ أن أخذه جل جـلاله لشيء من عباده لا يعني الا الرأفة بهم والتدبير المحكم فهو الواسع العليم ، وما يعطيه لهم يعني أنه فتح عليهم خـيرا يربيهم به ولينظر كيـف يصنعون وهو أيضا ضمن التدبير الرباني المحكم ، ففي الحالتين هو سبحانه أهل الحمد والشكر والثناء كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه •

ولا يمكنني الادعاء فيما سقته من حالات عاشهـا صاحبي ابان الشدائد والضيق والآلام أن حمله لاعباء الايمان ومعانيـه في أيام الرخاء والشدة كان سواء بل ان الصدق يقتضيني القول أن أعباء الايمان كانت تثقل كاهله عند الشدة فيتحامل بحيـث لا يسقط ، وعزاؤه أن مرد هـذا الى الضعف الانساني ، وكذلك كان يجهد تفكيره لاستحضار معاني الايمان والتدرع بها لمغالبة الهموم العارضة معتقدا شـدة حاجتـه اليها في تلك الساعات العصيبة •

« أليس الله بكاف عبده » ••؟!

بلى ••!

ان الجالس الى مائدة ملأت المكان طولا وعرضا قد نضـد عليها من الطعام أصناف بلا عدد مما لـذ وطاب وبحسبه لقيمات منها يسددن رمقه ويقمن أوده ثم تراه يبكي لان رغيف خبز قد نأى عن متناول يده لهو أشبه بطفل •

وكذلك شان الانسان في تعامله مع الله المنعم المفضل الا المؤمن فانه لا يليق به الا التزام الثقة فلا يميل به هاجس والتجمل بالحياء فلا يصدر عنه جهل والتمسك بالقناعة فلا يلهث وراء فضفاض والتحلي بالصبر فلا يحطمه يأس ٠

وهذا الدرس القرآني يعلمنا كذلك أهمية التذكير « فان الذكرى تنفع المؤمنين »(١٨) في حال الرخاء وحال الشدة وبما أنه أفصح لنا عن حاجة المرء المؤمن الى التذكير بمعاني الايمان والتوجيه السديد لاسيما عند الازمة اذن ينبغي لنا أن نحسن اختيار الاقوال ونجيد انتخاب الشواهد لانه بقدر حسن مانختار وجودة ما ننتخب من ذلك تكون الذكرى أبلغ وأفعل في النفس باذن الله تعالى ٠

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في مدار الذكرى عند المحن والشدائد والآلام فلتكن في مقدمة زادنا الملازم في هذا الشأن مثل :

« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير »(١٩) ٠

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك

---

(١٨) الآية ٥٥ سورة الذاريات ٠

(١٩) الآية ٢٦ سورة آل عمران ٠

فلا مرسل له من بعده »(٢٠).

« وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني »(٢١).

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٢٢).

« وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين »(٢٣).

« ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »(٢٤).

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور »(٢٥).

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب »(٢٦).

« انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين »(٢٧).

---

(٢٠) الآية ٢ سورة فاطر.
(٢١) الآية ٣٩ سورة طه.
(٢٢) الآية ٢١ سورة يوسف.
(٢٣) الآية ٤٢ سورة يوسف.
(٢٤) الآية ٨٧ سورة يوسف.
(٢٥) الآية ١٨٦ سورة آل عمران.
(٢٦) الآية ٢١٤ سورة البقرة.
(٢٧) الآية ٩٠ سورة يوسف.

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً »(٢٨).

بل ان القرآن الكريم برمته هو أبلغ وأتم وأصدق وأنفع ذكرى للبشر « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٢٩).

---

(٢٨) الآيتان ٢ و٣ سورة الطلاق.

(٢٩) الآية ٣٧ سورة ق.

نموذجان للسلوك الخطر

فرعـــون

تطالع القارىء للقرآن الكريم لمحات بعضها مكرر وبعضها مكمل لما سبقه عن طاغية هو فرعون يقـــرر السياق القرآني ان التاريخ البشري لم يشهد في سابق عهده نظيرا له في الطغيان على صعيد حكم الدول وقيادة الامم ٠

ويفهم من الاهتمام القرآني بسيرة هذا الرجل الذي عاصر رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان طاغية لا يضارع في مساوىء الشر والعدوان وأنه لم يبز السابقين في نهجـــه فحسب بل غدا أمثولة لا تبارى لاحقا على مدار التاريخ المقبــل الى يوم **القيامة** ٠

ولعل اجتماع مساوىء الشر والعدوان في هذا الطاغيـــة

وبالشكل الذي صار فيه مضرب المثل كما يقرر القرآن رشحه لان يندد به كتاب الله تكرارا ويشنع بنهجه ويحذر الناس لاسيما حكام الدول وقادة الامم من أن يخالط سيرهم أي قدر ولو كان ضئيلا من مساوئه كي لا يؤول أمرهم الى بئس المصير .

تأمل :

« وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين »(١) .

« وأضل فرعون قومه وما هدى »(٢) .

« قال ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون »(٣)

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين .. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »(٤) .

« قال لئن اتخذت الاها غيري لاجعلنك من المسجونين »(٥)

« ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين »(٦) .

---

(١) الآية ٨٤ سورة يونس .
(٢) الآية ٧٩ سورة طه .
(٣) الآية ٢٨ سورة الشعراء .
(٤) الآيتان ٧٦ و٧٧ سورة يونس .
(٥) الآية ٣٠ سورة الشعراء .
(٦) الآية ٥ سورة القصص .

« وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري»(٧) .

« وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الارض الفساد »(٨) .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين .. فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون»(٩)

« ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون .. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين .. فلو ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين .. فاستخف قومه فأطاعوه »(١٠) .

« هل أتاك حديث موسى .. اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى .. اذهب الى فرعون انه طغى .. فقل هل لك الى أن تزكى .. وأهديك الى ربك فتخشى .. فأراه الآية الكبرى .. فكذب وعصى .. ثم أدبر يسعى .. فحشر فنادى .. فقال أنا ربكم الاعلى .. فأخذه الله نكال الآخرة والاولى »(١١) .

فما الذي تشخصه آي الكتاب من مساوىء فرعون ..؟

تشخص أنه عال في الارض ومسرف ومضل لقومه ومتهم

---

(٧) الآية ٣٩ سورة القصص .

(٨) الآية ٢٧ سورة غافر .

(٩) الآيتان ٤٧ و٤٨ سورة الزخرف .

(١٠) الآيات ٥٢ ـ ٥٥ سورة الزخرف .

(١١) الآيات ١٦ ـ ٢٦ سورة النازعات .

رسول الله بالجنون ومعيب الحق بأنه سحر ومفرق لقومه ومفسد ومدع للربوبية وساخر من بينات الرسول ومتهم اياه بالفساد ومستخف بقومه ثم مدع للالوهية ..!

وهذه الآيات التي أوردناها هي جزء ضئيل مما تضمنه القرآن بخصوص فرعون ولكنها تشير الى أبرز مساوىء هذا الحاكم الذي اعطاه رب العالمين نعما لا تعد ولا تحصى وآخرها أن ساق اليه رسولا من أولي العزم من الرسل مؤزرا بأخيه هارون الرسول عليهما الصلاة والسلام مؤيدين بالبينات ليأخذا بيده مع بطانته ومن ورائهما الرعية الى طريق الهدى ولكنه بدل أن يقابل النعمة بالشكر والعرفان اعتبرها شتيمة لا يسكت عليها وراح يضحك ويسخر وآخيرا يصر « أنا ربكم الاعلى » و« ما علمت لكم من اله غيري » حتى حق عليه القول فأصبح هو ومن تابعه مثلا وعبرة لمن بعدهم .

فرعون الطاغية نموذج لا مثيل له قطعا وعلى مدار التاريخ الممتد الى يوم القيامة بدليل أن كتاب الله تضمن سيرته ليطلع عليها العباد كلهم الى آخر أيام الدنيا .

وعندما تقارن مساوىء فرعون بمساوىء الطغاة الآخرين الجدد ينبغي أن لا تكون حرفيا في المقارنة بل لاحظ اشتراك مساوىء الطغاة اللاحقين من حيث المضمون بنظيرتها الفرعونية .

فرعون عال في الارض وهذا الطاغية الجديد متكبر .

فرعون مسرف وهذا لا يبالي بمسؤولياته الجسام .

فرعون مضل لقومه وهذا كذلك يحيد بمواليه عن نهج الله باتباع السبل الاخرى ·

فرعون يتهم الرسول بالجنون ويعيب الحق بانه سحر وهذا كذلك يعتبر الدين أساطير أو خرافات أو مرحلة تخطاها الزمن أو أي مسمى آخر ينتقص شأن هدي الله ويطعن بصلاحه دستورا لحياة الناس كما أراد خالقهم جل ثناؤه ·

فرعون مفرق لقومه وهذا كذلك يعتبر العصبة التي تواليه أنها على الحق وسواها في الضلال أو تراه ينهج العصبية مثلا ليفرق ما جمعه دين الله الى أوصال كل منها يتعصب لنفسه ويتهم سواه بالضلال ·

فرعون مفسد وهذا كذلك أهدر قيم المعروف وعظم رذائل المنكر بغض النظر عن مسميات وتفاصيل المعروف والمنكر ·

فرعون مدع للربوبية وهـــذا كذلك يدعي أنه يرزق من يشاء ويغني من يشاء ويفقر من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ·· الخ ·· أو ان ممارساته تتبجح هكذا بلسان الحال ان لم يكن بلسان المقال ··!

فرعون ساخر من بينـــات الرسول وهذا كذلك يستهزىء بالانبياء وبيناتهم ويسخر من المؤمنين (أناس يتمسكون بمبادىء وأفكار مضى عليها آلاف السنين) ··!

فرعون يتهم الرسول بالفساد وهـــذا كذلك يتهم متبعي

القرآن بالرجعية أو العمل لحساب الاجنبي أو المتاجرة بالدين .. الخ ..!

فرعون استخف قومه فأطاعوه وهدا كذلك سلط على قومه كل ما بيده من وسائل القسر والقمع والاستعباد والاستذلال حتى استساغوا حياة الخنوع .

فرعون مدع للالوهية وهذا كذلك يجعل من نفسه الاهـا يعبد من خلال القوانين التي يسنها والسلطات التي يمتلكها وليس بالضرورة أن تكون لعبادته طقوس وانما يكفي أنه يفرض على الناس طاعته دون سواه حتى لو كان رب العالمين .

ولقد لاحظت أن القرن الميلادي العشرين لاسيما النصف الثاني منه شهد حكاما من الطغاة كثيرين في الوطن العربي والاقطار الاسلامية الاخرى وكذلك بلدان العالم المختلفة فكان الواحد من هؤلاء الطغاة يبدو في سيرته قزما بالقياس الى فرعون الا أن صفات السوء بقيت ثابتة وان اختلفت مقاديرها .

كيف ..؟

مساوىء الشر والعدوان عند الطغاة اللاحقين لم تتغير في حقيقتها ولكنها ارتدت ألبسة وأساليب فيها حداثة أو ظهرت في حدها الادنى أو بتضخم مساءة وضمور آخرى ، وكذلك نهاية كل طاغية من هؤلاء لم تتغير ويكفي من خزي هذه النهايات أن قوم كل واحد من هؤلاء كانوا أول من يبدأ بلعنه بعد قبره بأيام متذكرين عمله السيء وأنه كان لا يسمح لاحد بابداء رأي

مخالف بل كان يعتبر الرأي المخالف حتى لو صـــدر من أقرب الناس اليه من قبيل الخيانة التي تستوجب القتل ..!

وعقاب الله لهؤلاء لم يتغير أيضا .. فكما للسابقين منهـم كذلك للاحقين خزي وخسران في الدنيا وعذاب أشد وأبقى في الآخرة كما أخبر ربنا ..!

فهل يعتبر الانسان ..!؟

هذا بالضبط عمدة القصص القرآني ..!

أصحـــاب الفيـــل

حادث الطير الابابيل في القرآن الكريم يدعونا الى استيعاب ما تضمنه من ملامح هائلة تشير أوضح اشارة وأقواها الى قدرة رب الكعبة والبيت الحرام وغضبه عند اقتضاء ارادته لاسيما ان نازعه أحد المخاليق في شأن الربوبية أو مد عنقه نحو الالوهية.

فايراد هذا الحادث في سورة بأسرها ليس لمجـرد التذكير بحدث تاريخي كبير كان أهل مكة وقت نزول القرآن يتذكرونـه جيدا لاسيما منهم الذين تجاوزوا الخمسين سنة حيث أن هـؤلاء كانوا شهود عيان لوقائعه ، بل ان هذا الحادث جاء يخاطب الغافل عن ربه الذي وسعت قدرته كل شيء البعيد منا والقريب طالبـا بوجه خاص أن يتأمل المرء فعل القدرة وهي تدمر من عزم على

انتهاك حرمات الله تعالى .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. ألم يجعل كيدهم في تضليل .. وأرسل عليهم طيرا أبابيل .. ترميهم بحجارة من سجيل .. فجعلهم كعصف مأكول »(١).

هكذا باختصار جميل فيه الاعجاز واضح وبخمس آيات قصار فيها المضمون متكامل يخبرنا القرآن الكريم بقصة أصحاب الفيل التي هزت أحداثها أرجاء الجزيرة بأسرها وظلت طوال عشرات السنين محط اعجاب مذهل ..!

انها لو وقعت والبشرية آنذاك متاح لها ما هو متاح لنا الآن من وسائل الاتصال السريعة كالطيران ووكالات الانباء والابراق والتصوير لكان ماذا سوى أن ينتشر النبأ في كل الارض ..!؟

لا شيء أكثر من انتشار النبأ بأقل من ساعة ولكن لا أحد يجرؤ مهما خاطر بنفسه على الوصول الى منطقة أحداث كتلك التي شهدت ما جرى لاصحاب الفيل ، وحتى لو تيسر له الوصول فما أكثر الاحداث المدوية في زماننا التي تم انتشارها بأقصى سرعة ولكن مصيرها آل الى النسيان بعد أيام قلائل ..!

أما محاولة اجتياح الكعبة من قبل الاحباش التي لم يتح لها من وسائل الاتصال السريعة كالمعروفة لدينا الآن فان الله تعالى ضمن لذوي الالباب الاطلاع على نبئها في القرآن الكريم

---

(١) سورة الفيل .

من خلال انتشار الاسلام في طول الارض وعرضها بعد أربعين عاما من وقوع الحدث والى يوم القيامة ٠

انه حدث خالد لا يضيع في زحمة الاحداث وتراكمها لان الله تعالى أراد ايصال تفاصيله الى الناس جيلا بعد جيل ليقفوا فيه على عبر عديدة ينبغي أن تعلق بأذهانهم جيدا كي لا يعرضوا أنفسهم للمتاعب الكبيرة والاهوال العظمى وممن ٠٠؟

من الكبير المتعال ٠٠!

ما أرأف الله تعالى وأرحمه بالعباد ٠٠! يحنو عليهم بأشد من حنو الام المتقدمة في السن على وحيدها الرضيع ٠٠!

ابرهة الحاكم الحبشي لبلاد اليمن بنى كنيسة فيها باسم ملك الحبشة أرادها بديلة عن بيت الله الحرام بعد أن جمع لها كل أسباب الفخامة ورأى أن أول ما ينبغي عمله لصرف العرب عن حج البيت العتيق وترغيبهم بما ابتناه لهم هو ازالة المعالم التي كان سيدنا ابراهيم خليل الرحمان وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام قد أرسيا قواعد بنائها ثم رفعا هذه القواعد لتكون مثابة للناس وأمنا ، وليس هذا فقط بل لتكون فيما بعد متعلق ركنين في الاسلام حيث يولي أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم وجوههم شطر الكعبة في صلواتهم الى آخر الزمان ويؤدون عندها شعائر الحج ٠

وانطلق ابرهة على رأس جيش كبير صوب مكة حتى اذا بلغ أرض الحرم أنذر أهلها بأن جيشه مقبل على اقتحام الكعبة

وتهديمها فرأوا أن لا قدرة لهم على مواجهة هذا الجيش لمنعه مما هو عازم عليه فاختاروا الصعود الى أعالي الجبال معتقدين (ان للبيت ربا يحميه) وهي عبارة أفضى بهـــا عبدالمطلب سيد مكة وجد الرسول الى ابرهة الذي لم يأبه لما تعنيه فمضى نحو تنفيــذ ما عقد العزم عليه ٠

وبدأ الجيش الغازي عمليات الاقتحام ، وكان قد هيأ ضمن الحملة فيلا يستخدمه في تهديم البيت الحرام ٠٠ وسيق الفيــل نحو الكعبة فتحرك تلقاءها ولكنه على مقربة منها برك ، فتكررت المحاولة مرات فكان كل مرة يجثم على الارض بلا حراك ، أمـــا عند صرفه الى اتجاه آخـــر معاكس للكعبة فانه يسرع اسراع المتسابق ٠

ان مسألة احجام الفيل وتمرده لتستوقف العاقل طويلا ٠٠ !

فيل مجرب في اقتحام أهداف كبيرة ولا شك أنه كما يبدو مدرب ليس على تهديم بناء صغير الحجم وانما على تخريب مدينة بكاملها كيف اذن يتسمر في مكانه كلما اقترب من الكعبة في حين أنه يطلق أطرافه للريح كلما أدار ظهره اليها فيولي هاربا في الاتجاه المعاكس لما يريدون وكأنه يفـــر من أسود جائعة تريد تقطيعه اربا ٠٠ !؟

كم من مرة استخدموا الفيل في التخريب ٠٠ !؟

وكم انفقوا من جهد ووقت ليدربوه على التهديم وخصوصا في تحضيره لمهام (ازالة) البيت الحرام من الوجود و (محو)

آثاره بحيث يشكل هذا العمل رادعـا لمجدي الكعبة فيجعلهم لا يقتربون خطوة من (أطلالها) ويتحولون بـ(العبادة والتعظيم) نحو كنيسة القليس ٠٠!؟

ان بناء القليس بماء عيون الاحباش لا شك قد هان معـه بذل الكثير من الجهد والوقت مع الفيل حتى يكون جاهزا لتنفيذ المهمة وقادرا على تحقيق غرض الملك أمام مرأى نائبه قائد الحملة الاشرم ابرهة ٠٠!

لماذا اذن يتمرد هذا الحيوان الاعجم تمردا أشبه بما يفعله انسان عاقل شجاع من طـــراز المؤمنين الاشداء الذين يذيقهـم الظالمون أفظع العذاب فلا يتزحزون قيد أنملة عن ايمانهم ٠٠!؟

كيف تأتى لهذا الفيل من العقل ما يصرفه عن عمل السوء تجاه مبنى معين وقد درب طويلا عـلى أعمال مماثلة ازاء نظائر خالية من القدسية ٠٠!؟

كيف تأتى لهذا الفيل آن يفضل آلوان الآيذاء تصب عليه صبا فيحتمل مرارتها بصبر مؤداه الموت على أن ينفذ مهمة لـــو اجتمعت كـل حيوانات الارض لمــا فقهت من قدسيتها ذرة في الاحوال الاعتيادية ٠٠!؟

انه أمر الله تعالى يستقرؤه العاقل واضحا كالشمس مبينا كالنهار بليغا كالآيات لا يحتاج الى مزيد ملجئا الى الاعتبار داعيا الى التعظيم يفدى بحدقة العين ويضم في حنايا الفؤاد لانه سراج هداية في الليلة الظلماء ٠٠!

وفيما كان الجيش الحبشي يحاول تحقيق هدفه بلا جدوى ودون تراجع أو ارتخاء عزيمة بدأت طلائع الغضب الالهي والانتقام العادل تقدم نحو أفراد الجيش واذا هي طير على شكل مجاميع تحمل حجارة مطينة ترميهم بها فتجعل الواحد منهم كأوراق الشجر المتساقط فمنهم من صرع حالا ومنهم من ولى هاربا فأدركته فصرع ومنهم من صرع في طريق العودة ومنهم من صرع بعد الاياب ، وهذا التأخير انما هو زيادة في عذابهم حيث كان الواحد منهم يرى جسمه يتساقط أوصالا لا يجدي معه أي علاج وكذلك ليشهد هذا العقاب أناس آخرون فيزداد خزي المجرمين افتضاحا ويكون لعقاب الجريمة دوي أوسع وأشد ٠

والمثير للعجب أن أهل مكة كانوا يشهدون هذا الامر من فوق الجبال المحيطة بأرض الكعبة وكانوا هم أقرب الى الطير من أفراد الجيش الغازي ولكنها لم تمسهم بأي سوء بل كانت تنقض بحمولتها على أعداء بيت الله دون سواهم ٠

ان أهل مكة بشر وكذلك أفراد الجيش الغازي بشر أيضا ولكن الطير الابابيل كانت تميز جيدا بين بشر وبشر بين هذا البشر القريب منها على رؤوس الشواهق وذاك البعيد عنها في قعر الوادي ٠٠ كانت لا تريد أن يخدش أهل مكة المتفرجون فوق الجبال بأي خدش فيما كانت تقذف حجارة العذاب المهلك على الاحباش فلا تخطىء منهم احدا ٠٠!

كيف أوتي الطير هذا الذكاء ٠٠!؟

أي أصرار هذا من مخلوق صغير بحجم العصفور أو الحمامة

يحمل حجارة من جهة البحر ويقطع بها مسافة ترهق حجمه ،والى اين ٠٠؟ الى وادغير ذي زرع لمقاتلة جيش عرمرم استباح حرمات الله فاستحق الفتك بأفراده بلا هوادة ليكون عبرة لا ينقطع دويها الى آخر الزمان ٠٠!؟

أليس هذا أمر الله ٠٠!؟

نعم ٠٠!

انه يهز نفس الغافل لتصحو ٠٠!

ويزيد النفس المؤمنة خشوعا ٠٠!

أما الاعمى فهيهات أن يبصر اذ لا يزيـده الحـادث العظيم والعذاب المذهل الا تخبطا في ظلاله ٠٠!

ان الله لا يسكت على انتهاك حرماته ، فهل يعني هذا أخذه المنتهكين بطير أبابيل أو بعقاب مباشر كهذا في كل حالة ٠٠؟

ليس من شأننا تحديد الطريقة التي يعاقب الله بها عبـاده فهو جل شأنه اذا شاء يفعل ما يريد ٠٠ انما المهم للانسان وهو يطالع في القرآن سورة الفيل أن يعلم أن ربه عزوجل لا يتركه سدى واذا أراد سبحانه أن يعاقب منتهك حرماته في الدنيا قبل عذاب الآخرة وأمام أنظـار الآخرين لتحقيق العبرة والاعتبار فهناك صور شتى للانتقام ولا حصر لها ٠٠!

ان أخذ الله لمنتهكي حرماته ربما يكون غير مألوف من مثل

الطير الابابيل وربما يكون جد مألوف كوباء الهيضة والاعاصير والفيضانات والحرائق والزلازل والحروب وسوى ذلك كثير(٢) وقد يتناولهم جماعة وقد يعصف بهم فرادى ٠٠ الا آن العقاب الالهي اذا حل لا يتحسس استحقاقه آحد كالمجرم ٠٠!

وأرى أن العاقل اللبيب لا يميز في مسالة العقاب بين طير آبابيل وبين ذبابة تظل تلاحق المجرم وكأنها تعرفه جيدا ولاشأن لها بسواه فلا يقدر له دفعها حتى تدخل في آنفه فيكون بهذا مصرعه الوبيل ، أو آن تدس الذبابة في طعامه جراثيم شرا من الطير الابابيل فيصرع هو دون سواه آعنف صرعة بعد آيام أو آسابيع أو سنين يتجرع خلالها مر المعاناة وربما دون معرفة سر ما آصابه ٠٠!

آلا انه عقاب الله القوي العزيز المنتقم الجبار آصدق القائلين « ونحن آقرب اليه من حبل الوريد » ٠٠!(٣) « وما يعلم جنود ربك الا هو » ٠٠!(٤).

ان العاقل اللبيب يرى سلطان ربه غير بعيد عنه فهو لايفارقه في ليل أو نهار فالانسان ما هو الا نسمات هواء اذا توقف عن استنشاقها انتهى وصار جثة هامدة في لحظات ، بل ان آمره آيسر على سلطان الله من ذلك بكثير ٠

---

(٢) وليس ضروريا أن تكون هذه المالوفات بمثابة عقاب رباني في كل الاحوال اذ قد تكون اقتضتها متطلبات اخرى لا يعلم الحكمة والقصد منها الا الخالق سبحانه وتعالى ٠٠!

(٣) الآية ١٦ سورة ق ٠

(٤) الآية ٣١ سورة المدثر ٠

وعندما يصغي هذا العاقل لكلام ربه في سورة الفيل فانه يتصور الاهوال فيما تنطوي عليـه الآيات الخمس القصار ..!

أما النوع الآخر من البشر فشأنه عجيب ، انه لا يريد أن يعتبر ويؤمن حتى لو انشقت السماء برهانا ، وما أوثق النسب بـين هؤلاء العمي العتاة وأولئك الذين قالوا عند نزول القرآن :

« اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعذاب اليم » ..!![5].

وما أشبه هؤلاء وأولئك بالذين :

« قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين .. قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين »[6].

---

(٥) الآية ٣٢ سورة الانفال .

(٦) الآيتان ٣٢ و٣٣ سورة هود .

على هامش الغيب

نافذة على الارض قبيل القيامة ..!

تطلعت كثيرا الى صورة الحال التي ستكون عليها الارض قبيل قيام الساعة صاعدا بنمو الحضارة والعلوم المادية اللذين احرزتهما البشرية حتى الآن الى درجات أعلى ، ولكن الامر لا يتعدى الحدس يلتقط بضع لمحات ثم يتوقف أمام جدار المجهول عند ارادة الجزم بالأبعاد النهائية لاي تصور اجتهادي حول هذا الموضوع اذ أن المستقبل يبقى غيبا استأثر ربنا بعلمه « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء »(١) .

ولا بأس في استقراء الملامح التي لا تتجاوز نطاق امارات الساعة اذ أن رسول الله تعرض لهذا الجانب حاكيا العديد من

(١) الآية ١٨٨ سورة الاعراف .

تلك الامارات كما يروي الامام البخاري وكثيرمن الرواة الآخرين مع تشديده صلى الله عليه وسلم على أن موعد الساعة غيب لايعلمه الا الله « لا يجليها لوقتها الا هو »(٢).

وفي مدار الحدس بعيدا عن اطـار الغيب توقعت أن يتاح للبشر من الحضارة والعلوم المادية اذا امتد بهم الزمـان حقبـا طويلة مايجعلهم ينعمون اجمالا بشكل أوسع وأوفر وأدق بثروات الارض التي نتداولها في زماننا والتي ستكتشف فيما بعد بسبب ما يحرزونه من علوم مـادية ومـا يرتقون اليـه من مستوى الحضارة .

وفيما افكر بهذا الجانب من مستقبل البشرية فوق الارض مر علي قوله تعالى « حتى اذا أخذت الارض زخرفهـا وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس »(٣) ورحت اقرؤه بامعان واقفا عند كل كلمة حتى بدت لي الآية كأنها باب فتحه رب العزة والجلال لاستقراء ملامح الزمن الذي تختم به دنيانا حيث تقوم السـاعـة وتبدأ الآخرة .

ما معنى أن تأخذ الارض زخرفها وتزين ..!؟

انه ازدهار الحياة على سـطح الارض بالحضارة والعمران ورخاء سبل العيش بأعلى الوتائر وأقصى الحدود بفضل اتساع نطاق العلوم المادية وتعدد مجالاتها والتمكن من ناصية أدقهـا

(٢) الآية ١٨٧ سورة الاعراف .

(٣) الآية ٢٤ سورة يونس .

وأعقدها ذي المنافع الجلى الوفيرة مما يجعل هذا كله الارض بما ومن عليها مزدانة بحلل تنطق بكمال الزينـة وتمام الرواء أي بما لم يسبق له مثيل في مستواه ٠

حتى يصل الامر أن يحسب أهل الارض أنهم قادرون على كل مافي الكوكب وأنه ليس ثمة ما يستعصي عليهم الانتفاع منه وبالشكل المحقق لاوفر المصالح بأخصر الطرق وأيسر الوسائل وأدنى الجهود وأقل الكلف ٠

كان البعض في السابق يفسر زخرف الارض وتزينها بان تعمها مباهج الخضرة وعطاء الزروع والاحظ أن المسلم كـان عندما يقرأ « أخذت الارض زخرفها وازينت » ينظر الى ما يعنيه زخرف الارض وتزينها في زمانه ثم يتصور أقصاه كائنا قبيـل الساعة(٤) ٠

وهذا صواب ، ولكن الاصح منـــه كما أعتقد أن زخرف الارض وتزينها يكونان في نطاق يشمل جميع المجالات التي تنال بها الارض زخرفها وتزين وصولا الى قمة ما يتجمع في آخــر الزمان متراكما عبر كل العصور التي مرت وتمر على البشرفوق الارض ، فهذا أتم لمعنى الزخرفة والتزين ويتوافق مـــع سياق الحياة الصاعد بما يتزايد للبشرية من حصائل نحو الاعلى لاسيما في مجال الحضارة والعمران ورخاء العيش ٠

---

(٤) ينظر (مفاتيح الغيب) لفخرالدين الرازي ٨٢٩/٤ وينظر (الصورة الفنية في المثل القرآني) للدكتور محمد الصغير ص ٣٥٥ ٠

ولك أن تتخيل غرور الانسان وطغيانه آنذاك أي حد يبلغانه في هذا المخلوق « ان الانسان ليطغى ٠٠ أن رآه استغنى »(٥) حيث ان أقل الاستغناء يمكن أن يغري البعض ويطغيه محاكيا فرعون في العتو والظلم والضلال والفساد والاستخفاف بالناس وادعاء الربوبية وزعم الالوهية ، فكيف اذا بلغ به الاستغناء مرتبة لم يدركها اخوانه البشر الذين سبقوه في الحياة ٠٠!؟(٦)٠

على آية حال نحن نسأل الله تعالى العافية ولا شأن لنا بالاحوال التي تكتنف اخواننا اللاحقين سوى أن نرجو لهم الهداية والسداد فلا يعنينا من شأنهم الا الصور المرتسمة في أذهاننا ونحن نقرأ الآية ٠

وعندما يصل الفساد الى أوجه ويبلغ الضلال أقصاه ويأخذ عصيان العباد لخالقهم مداه كاملا ماذا ينتظر ٠٠!؟ هنا تعمل القوانين التي أودعها الله تعالى الحياة عملها وهو ان تطهر المكان وتزيل الرديء فالارض بطبيعتها لا تحتمل الفساد مستديما ولا الضلال جاثما بكلكله مقيما ٠

فكلنا يتذكر ما حل بالارض أيام رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام حيث غرق كل ما ومن عليها باستثناء سفينة نجت بأمر ربها وهي تحمل مخلوقات صالحة لاعمار الارض من جديد لان

---

(٥) الآيتان ٦ و٧ سورة العلق ٠

(٦) يظل فرعون نموذجا في الطغيان لا يبارى الى آخر الزمان فمن يماثله في تلك الصفات كلها لا يساويه في تكذيب موسى الرسول واخيه هارون الرسول عليهما الصلاة والسلام ومحاولاته صرف الناس عن هديهما العياني والمتثاقل عنهما من قريب بكل ما أوتي من قوة وامكانات ٠

الفساد المستشري قبيل الطوفان في قيم الناس وسلوكهم كان ينذر باختلال الحياة على نطاق واسع ولفترة أطول وبالتالي الحاق أفدح الاضرار بكل الكائنات الارضية حتى التراب والحجارة الصماء كانا لا يسلمان من سوء ذلك نتيجة التصرفات غير المحكومة بعقل بصير ويقين متصل بالخالق جل وعلا .

يقول سبحانه :

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الاخمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين »(٧) .

هذا القانون الالهي الصارم فعل فعله في بدايات الحياة البشرية فوق الارض عندما كان الفساد في أوائل عهده فقل لي بربك أي حد من الفساد يبلغه البشر آخر الزمان الارضي حتى تكون عملية التطهير اقترابا للساعة بحلول اماراتها الواردة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وهي مجموعة من البلايا والفتن احتمالها شديد كل الشدة ..!؟

ففي الصحيح يقول صلى الله عليه وسلم :

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب

---

(٧) الأيتان ١٤ و١٥ سورة العنكبوت .

من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله وحتى يقبض العلم(٨) وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن(٩) ويكثر الهرج وهو القتل وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا ارب لي به(١٠) وحتى يتطاول الناس في البنيان وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه(١١) وحتى تطلـــع الشمس من مغربها فاذا طلعت

---

(٨) لعل المقصود هنا هو العلم الذي يكون بهخلاص الناس من البلاء وقبض هذا النوع من العلم الجليل القدر بموت أصحابه مثلا لا يمنع أن ينتشر بينهم وينمو العلم الموظف للمرامي الدنيا بدليل وجود الدجالين المشار اليهم في الحديث الزاعمين انهم رسل الله ، فهؤلاء لا يمكن أن يخلو الواحد منهم من العلم المكرس للشــر بحيث يتمكن به من خداع الكثيرين وتضليلهم ..!

ويحتمل « قبض العلم » الابتعــاد به عن نواحي الخير واستعماله في اغراض الشر ، فالسحر يمكن أن تتعلمه فتصرف الناس عن خبائثــه والوقوع في حبائل السحرة فيما يتعلمه غيرك فيوظفه لاغراض الشر ومحاربة الخير ، وكذلك عــلم الذرة حيث نجد في زماننا من يوظفه لخير الناس ومن يوظفه للفتك والدمار .

والاحتمال الثاني للمقصود بقبض العلم هو الارجح كما أرى .

(٩) يعني أن تشيع الفتن وتنتشر مما يستدعي تكاثر صرعاها ، ففتنة واحــدة تداهم المرء بعيدا عن الرقباء قد يملك زمام نفسه ازاها ، اما أن تكــون كثرة للفتن وظهور وبعضها يعضد البعض الآخــر في مغالبة الناس فهذا هــو البــلاء ليس ما بعده ..!

ان كلمة « تظهر » هنا لا تخلو من الافادة بأن تغــدو للفتن الكثيرة اعراف اجتماعية وتقاليد تحرسها قوانين الناس الوضعية وتقدسها بل وتعاقب ربما دون هوادة كل من لا يصنع هذا الصنيع معها ..! قد تقول ان هذا الحال قائم الى حد ما في زماننا ، اذن ما أدهاه قبيل الساعة ..!؟ فتأمل ..!

(١٠) أي فيض للمال هذا بحيث تعطى الصدقة لمن يستحقها فيقول لا حاجة لي بها .. ان هذا يدلل على أن توفر المال أو عدم توفره ليس هو المشكلة حينئذ وانما هناك من المشاكل ماهو أصعب وأشد الى درجة أن المال هذا السلاح ـ الذي اعتبر بتارا منذ التاريخ القديم ولا يزال ـ لا يستطيع المساعدة على حلها ..!

(١١) يشير الى عظم معاناة الناس وضيقهم باحوال الدنيا وافعال اهلهــا . وما أدهى المعاناة عندما يضيق بها شرار الناس الى حد ان يحسدوا الموتى لا على انهم حازوا الجنة ورضوان الله تعالى وانما لانهم عوفوا من الابتلاء بالحياة آنذاك ..!

ورآها الناس آمنوا آجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فــلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته(١٢) فلا يطعمـه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقـد رفع آكلته الى فيه فلا يطعمها(١٣)»(١٤) .

ولا يعني هذا أن الساعة لم تكن لتقوم لولا ذلك المبلغ من الفساد الذي يحكم حيــاة البشر ويلف الارض في ذلك الوقت ، انما المقصود هو ان نتأمل سنة الله في الخلق كيـف تجري منـذ بدايات الحياة الدنيا وحتى آخر لحظة من عمرها .

وبعد أن طالعنا لمحات عن حياة الناس آيام سيدنا نوح وما حل بهم من آمر الطوفان وهم في بدايات الحياة فلنا آن نتصور مدى الضلال والفسادوالغرور الذي سيلتاث به الناس في اواخر الحياة بحيث تكون عاقبة آمرهم آن تتزعزع كــل معالم الحياة تمهيدا للقيامة علىمسمع ومرآى منهم فتثقل المعاناة عليهموتشتد بسبب المستوى الرفيع الــذي يبلغونه في الحضارة والعمران وعلوم المادة ومعطياتها من النعم فيما لم يبلغ نظراؤهم العصاة الفاسدون في قوم نوح ذلك المبلغ الرغيد ، فيا للاهوال ..!!

وهؤلاء الناس الذين سيشهدون الايام الاخيرة فوق الارض

---

(١٢) الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .
(١٣) قوله صلى الله عليه وسلم « وقد رفع اكلته الى فيه فلا يطعمها » يوضح ان الساعة عندما تحل يكون قيامها من السرعة « كلمح البصر او هو اقرب من ذلك » الآيـة ٧٧ سورة النحل .
(١٤) رواه البخاري .

لابد أن السوء يبلغ بتصرفاتهم حدا يفوق مابلغه السوء بتصرفات أمثالهم في بدايات الحياة مثلما أن أحداث عاقبة أمرهم وهي شهودهم احتضار الحياة فوق الارض تفوق من حيث أهوالهـا أحداث الطوفان اذ أن مشاهدي احتضار الحياة يكونون أحياء كموتى أذهلهم الكرب الشديد لانهم مغمورون في عز ما تبلغه الارض من نعم وقوة وجمال أما المعاقبون بعملية الطوفان فانهم أغرقوا بعد حيـاة فوق الارض أوائل عهدها بالتنعم والقـوة والجمال حيث الحضارة في بدايتها والعمران في بدايته وعلوم المادة في بدايتها(١٥) ثم ان احتضار الحياة يكـون مقدمة لقيام الساعة و « شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء »(١٦) أما الطوفان فقد كان مقدمة لاستئناف الحياة بعد عملية التطهير ..!!

وان هؤلاء بفعل سلوكهم الذي لا يضارع في السوء استحقوا

---

(١٥) وربما يتساءل البعض معترضا : ما أدراك أن النعم والحضارة والعلوم كانت في في بدايتها أيام سيدنا نوح ..؟ الجواب سهل ..! فالقرآن يقول ان هذا النبي الكريم أعد سفينة للخلاص من غرق الارض ولم يقل انه أعد مركبة فضاء انطلق فيها الى علو شاهق وراح يراقب حركة الطوفان واهوالها من بعيد حتى اذا اقلعت السماء بتوقف المطر وغيض الماء الى أعماق الارض هبط النبي ومرافقوه بتلك المركبة التي تشبه (أوتوبيس الفضاء) المعروف في أيامنا هذه في أنسب الاماكن ومعه نخبة من المخلوقات التي كان قد اصطحبها في الرحلة .. هـذا لم يحصل ولم يذكر ..!

واعتقد أن سفينته لم تكن غواصة نووية لان علوم المادة لم تبلغ هذا المدى آنذاك بدليل ان سفينته كانت الناجي الوحيد من الغرق كما يحكي القرآن مـع حرص الكفرة المغرقين على التشبث باي وسيلة نجاة سوى سفينة نوح فلو كان ثمة انتشار لتلك العلوم وازدهار لما كان الفرار من الغرق تشبثا بتسلق الجبال كما حصل لابن نوح « قال ساوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » الآية ٤٤ سورة هود .

(١٦) و« لا يأتي عليكم زمان الا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » حديثـان رواهما البخـاري .

نيل بعض العقاب في الدنيا وذلك بمشاهدة المقدمات المفزعة لقيام الساعة مثلما استحق اشباههم في الامم السابقة آن خسف الله بديارهم الارض وقلب مدنهم على رؤوسهم واخذ آخرين بريح صرصر عاتية وأغرق سواهم بالطوفان وآمثالهم كثيرون ٠

فالعقاب هو من هذا الجانب وليس آن قيام الساعة مرهون بافعالهم اذ آنها في تقدير الخالق جل جلاله لابد آن تقوم ليقف الناس بين يدي ربهم فيجازي المحسن باحسانه ويأخذ المسيء باساءته :

« ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين آحسنوا بالحسنى ٠٠ وآن ليس للانسان الا ما سعى ٠٠ وآن سعيه سوف يرى . ٠ ثم يجزاه الجزاء الاوفى ٠٠ وآن الى ربك المنتهى (١٧) » ٠

واذا لم يكن عقابا شهودهم مقدمات الساعة وما فيها من آهوال فقل لي بربك لم لم يكن شهودها آصلح الخلق وآكرمهم عند الله تعالى ٠٠!؟

وما آضأل عقلية المغرور « حتى اذا آخذت الارض زخرفها وازينت وظن آهلها آنهم قادرون عليها آتاها آمرنا » ففي حال التمكن الذي يحسب المغرور آنه لا يؤتى منه اطلاقا يأتي آمر الخالق عزوجل فينسف كل حسابات الغرور وآعمال الغرور وحصون الغرور ٠

« آتاها آمرنا ليلا آو نهارا » ان تحديد الموعد بصيغة (نيل

---

(١٧) الآيات ٣١ و٣٩ و٤٢ سورة النجم ٠

أو نهار) في هذا الموضع لا يعني الشك أو التراخي أو عـــدم الحسم في الكلام اطلاقا فهذا ظن الجهلة من أول وهلة ، وانمـا هو قول محكم كل الاحكام ، كيف ..؟

عندما يحل قيام الساعة يكون خاطفا « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب من ذلك »(١٨) وهذا اذ يجيء يكون نصف الارض ليلا والنصف الآخر نهارا ..!

ومن هذا يتبين أنه لو اقتصر العليم الخبـــير في قوله على « ليلا » أو على « نهارا » لاصطدم هذا القول بالواقع الارضي اذ عند حلول أمر الساعة ليلا بعد تحديد موعدهـا بالليل سيقول أصحاب النهار انه قال تأتيكم ليلا فكيف جاءتنا في النهار ..!؟ وبعكس هذا يكون اعتراض أصحاب الليل فيما لو حدد الموعـد نهارا ..!!(١٩).

لقد حمل المسلمون الاوائل مسألة « ليلا أو نهارا » على أن علم الساعة غيب استأثر الله تعالى بعلمه وهذا حق لم يتغير ولـن يتغير الى يوم القيامة ، فليس يعني اكتشافنا اليقيني مؤخــرا لدوران الارض حول نفسها بحيث يكون نصفها في ليل ونصفها الآخر في نهار وتوافق ذلك أتم التوافق مع التعبير القرآني نوعا من التعرف على موعد هذا الشأن الغيبي اطلاقا اذ « لا يجليهـا لوقتها الا هو »(٢٠).

---

(١٨) الآية ٧٧ سورة النحل .

(١٩) ينظر (القرآن محاولة لفهم عصري) للدكتور مصطفى محمود ص ١٨٨ وينظـر (الصورة الفنية في المثل القرآني) للدكتور محمد الصغير ص ٢٩٩ .

(٢٠) الآية ١٨٧ سورة الاعراف .

فكل ما تم بالنسبة لنا في القرون الاربعة الاخيرة عندما تأكد لنا دوران الأرض حول نفسها هو أن الله تعالى أرانا آية في هذا الموضوع تدلل بوضوح على القول المحكم المتزايد الشأن على مر القرون وهي أن قوله تعالى «أتاها أمرنا ليلا او نهارا» أنزل على رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن في زمانه علم رصين يقيني منتشر يفهم منه الناس أن الارض تدور حول نفسها ، ورغم ذلك فان الكلام الذي بلغه الرجل الامي عليه أفضل الصلاة والسلام عن ربه جاء متطابقا كل التطابق مع الاحوال الحقيقية للارض التي اكتشفت بعد قرابة ألف سنة ..!!

أو ليس انه « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى »(٢١) ..!؟

« أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس » هكذا بلمح البصر وفيما ينعم أهلها بكل اسباب التمكن والاقتدار تتحول الى دار خراب وكأن لم يكن لاهلها قبل لحظة وضع القوة والكفاء ..!

أهكذا وبكل سهولة ..!؟

نعم ، لان أمر الله اذا جاء لا يقف في طريقه شيء ، فليبلغ أهل الارض ما يبلغون قوة وكفاء فان أمرهم يسير مهما استفحل وتعاظم بل ان الارض برمتها تصير فتاتا بأقل من لمح البصر اذ عندما يقول ربنا للشيء كن فانه لابد كائن ..!

---

(٢١) الآيتان ٣ و٤ سورة النجم .

عجبا للانسان الضال يعنى بتشييد وزخرفة الزائل ويعتد به كل الاعتدادولو كان هو العبث المزري واللهو التافه والتفاخر الفارغ غير مبال بنتائج العصيان السافر الوقح للخالق المنعم ذي الجبروت الذي آليه يرجع الآمر كله ..!!

يحرص الانسان الضال على تشييد الزائل مع التفريط بحقوق الله وكأن هناك تلازما للامرين في نظره ..! وهذا عين الخطأ ، فالمؤمن يحرص أيضا على التشييد ويعتبره من قبيل العبادة الا أنه لا يجعل من التشييد سببا للتفريط بحقوق الله الاخرى وانما يدعوه الى شكر الرازق على ما أنعم « هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور »(٢٢)وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون .. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون »(٢٣).

ان العمل في مناكب الارض وارتباط ذلك بالاكل من رزق الله يمكن آن يعني أعظم عمارة لها وأوسع سيطرة على كنوزها وأصلح استثمار لخيراتها ، لا خوف في ذلك على سلوك الانسان مادام مستجيبا لامر الله في سعيه شاكرا له على رزقه متذكرا آن اليه المصير بمفارقة الدنيا الى دار البقاء ..!!

بل ان عمارة الآرض ضمن منهج الله لا تفارق عقل المؤمن

---

(٢٢) الآية ١٥ سورة الملك .
(٢٣) الآيات ٣٣ ـ ٣٥ سورة يونس .

وحرصه حتى قبيل قيـــام الساعة بلحظات ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يحث من بيـــده فسيلة آن يغرسها التماسا للاجـر والرضوان لا يثنيه عن ذلك آن لم يبـــق من عمـر الارض الا لحظات ٠٠!(٢٤)٠

وهكذا نلاحظ آن عمارة الارض لا تتم الا بقانون ٠٠

الضال يلتمسها بقانون الحرص على المردود الآني الخاص الذي لا يجد في تطبيقه الزاما فهو يتمسك به اذا شاء الانتفاع ولا يحس في نفسه حرجاً ان لم يتمسك به لاي سبب ٠٠!

آما المؤمن فانه يلتمس العمارة بقانون الحرص على المردود العام الطويل الامد الذي يجد في تطبيقه الزاماً سواء انتفع به هو آم الآخرون سعيا لاداء مهام الايمان في الدنيا لاجل الظفـر برضى الله وحسن الجزاء في الدار الآخرة ٠٠!

---

(٢٤) اشارة الى الحديث « ان قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فان استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها » رواه أحمد والبخاري ٠٠ ينظر شرح تفصيلي للحديث في (قبسات من الرسول) لمحمد قطب ص ١٦ وينظر موضوع الايمان بالآخرة لا يعطل الدنيا في (الايمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي ص ٣٠٩ ٠

ختـــام

ليس ما قدمناه بين دفتي الكتاب هو كـل خطاب الله للعقول وانما فقرات منه ولكنها على قلة عددها تطـرق السمع فتستهويه مصيخا وتستلفت النظر فتغويه تحديقا وتستجيش قوى الالباب فتاسرها وتمسك مجامع القلوب فتملكها .

اللهم لك كـل الحمد والشكر والثناء كما أنت أهله وبما نزداد به منك حبا عدد ماتعلم آنه الاكثر والادوم وبمثله صل وسلم وبارك على سـيدنا محمد وعلى جميـع من والاه .

مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ (الجامع لاحكام القرآن) لابي عبدالله القرطبي الناشر دار الكتب المصرية عام ١٩٦٢ .

٣ ـ (مفاتيح الغيب) لفخرالدين الرازي الناشر دار الطباعة العامرة في اسطنبول عام ١٣٠٧هـ .

٤ ـ (كلمات القرآن تفسير وبيان) للشيخ حسنين محمد مخلوف الناشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي في مصر .

٥ ـ (في ظلال القرآن) لسيد قطب الطبعة السابعة لدار احياء التراث العربي في بيروت .

٦ ـ (تفسير المؤمنين) لعبد الودوه يوسف الناشر دار الرشيد في دمشق وبيروت .

٧ ـ (تفصيل آيات القرآن الحكيم) وضعه بالفرنسية جول لابوم ونقله الى العربية محمد فؤاد عبدالباقي الطبعة الثانية ١٩٥٥ الناشر دار احياء الكتب العربية في القاهرة .

٨ ـ (فتح الرحمن لطالب آيات القرآن) لفيض الله الحسني الناشر دار التعاون في مكة المكرمة ١٣٢٣ هـ .

٩ ـ (القرآن محاولة لفهم عصري) للدكتور مصطفى محمـود الناشر دار الشروق ١٩٧٠ بيروت .

١٠ ـ (الصورة الفنية في المثل القرآني) للدكتور محمد حسين الصغير الناشر دار الرشيد ١٩٨١ بغداد .

١١ ـ (صحيـح البخاري) لابي عبـدالله محمـد بن اسماعيل البخاري الناشر مطابع الشعب المصرية عام ١٣٧٨ هـ .

١٢ ـ (فقه السنة) لسيد سابق الناشر دار الكتاب العربي في بيروت .

١٣ ـ (السيرة النبوية) لابن هشام الطبعة الثانية عام ١٩٥٥ لمكتبة مصطفى البابي الحلبي في مصر .

١٤ ـ (قبسات من الرسول) لمحمد قطب الطبعة الثانية ١٩٦٢ الناشر مكتبة وهبة في القاهرة .

١٥ ـ (الوجيز في أصول الفقـه) للدكتور عبدالكريم زيدان الطبعة الرابعة عام ١٩٧٠ ـ مطبعة العاني بغداد .

١٦ ـ (الايمان والحيـاة) للدكتور يوسف القرضاوي الطبعة الرابعة عام ١٩٧٩ لمؤسسة الرسالة في بيروت .

١٧ ـ (الانسان ذلك المجهول) للدكتور الكسيس كاريل تعريب شفيق أسعد فريد الناشر مؤسسة المعارف في بيروت .

١٨ ـ مصادر أخرى لم نستشهد بنصوصها كان لهـا فضل عـلى الاطار العام للكتاب .

فهرس

الصفحة

اهـــداء	٩
مقدمة/ايمان العلم والشجاعة أسمى مراتب البشر	١١
منهج الايمان عقلاني	٢٧
المعرفة أساس اليقين	٢٩
عملية الايمان كيف تتم ..؟	٤٥
المنهج المحيط بالنفس الانسانية	٦١
منهج الله تبيان لكل شيء	٧٥
منهج الكفر شهواني	٨٧
تأليه الهوى	٨٩
الوعي بلا التزام	١٠١
بصيرة العقل وطيش الهوى	١١١
في التربية والتبليغ	١٢٣
شعاع الاسوة أنفذ من بريق الكلمات	١٢٥
موعظة لقمان معالم مضيئة لا يفتر توهجها	١٣٧
أليس الله بكاف عبده ..؟	١٤٥

نموجان للسلوك الخطر ١٥٩
فرعون ١٦١
أصحاب الفيل ١٦٩
على هامش الغيب ١٧٩
نافذة على الارض قبيل القيامة ٠٠! ١٨١
ختـــام ١٩٥
مصادر الكتاب ١٩٧

تصويب الخطأ المطبوع سهوا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩	الاخير	امرءأ	امرأ
٦٢	١٦	ألأوجل	أوجل
٧١	١٤	يحمـد	يحمده
٧٧	الاخير	غير واضح	التصرف
٧٨	٥	السيء	السيىء
٨٥	٧	غير واضح	هـذا
٩٥	الهامش	(٥)...	يحذف
٩٦	الهامش	محذوف	(٥) الآية ٢٦ سورة غـافر
٩٧	الهامش	٣٦	٢٩
١١٧	١٤	غير واضح	صخور
١٣٢	٣	اياها	اياه
١٣٣	١٦	المتمثل	المستثل
١٧٣	١٠	يتزحزون	يتزحزحون
١٧٣	١٨	غير واضح	مبينـا

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٩٢
لسـنة ١٩٨٤

كتب للمؤلـف :

١ ـ كيف نرى الله ؟
٢ ـ ملامح كونية في القرآن
٣ ـ المنهج العلمي للاعتقاد
٤ ـ الغيب الالهي عالم يقيني عجيب
٥ ـ ماذا بعد الموت ؟
٦ ـ اسماء الله وعلاقتها بمخلوقاته
٧ ـ الله يخاطب العقول